obeikandl.com

أرشيف مدينة تحتضر

• مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.

• يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.

• يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.

• يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.

• الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◆ ◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

◆ ◆ ◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: (00202) 33448368

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

obeikandl.com

صالح البياتي

أرشيف مدينة تحتضر

قصص

obeikandl.com

الكتاب: أرشيف مدينة تحتضر

الكاتب: صالح البياتي

(العراق)

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠٠٨

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني:

وحدة الكمبيوتر بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٥٣٥٩

الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-291-927-3

البياتي، صالح.

أرشيف مدينة تحتضر/ صالح البياتي.

- الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠٠٨.

١١٢ ص؛ ٢٠سم.

تدمك: ٣-٩٢٧-٢٩١-٩٧٧

١- القصص العربية القصيرة.

أ- العنوان ٨١٣,٠١

obeikandl.com

إهداء

لأولئك الناس الشجعان الذين كانت أحلامهم في الحياة بسيطة جدًا: أن يعيشوا بهدوء ويموتوا بكرامة، ولكنهم أضطروا أن يخوضوا غمار الحرب ولفتهم عاصفة العنف والخوف والموت...

إليهم هذه الأوراق القليلة عساها أن تكون عزاءً لنفوسهم المعذبة، أو حتى شهادة ناقصة لآخر لحظات العزلة التي أحسوا بها أن العالم قد تخلى عنهم وتركهم ينخبطون في غبار المدن المحتضرة..

أهداء ثان

إلى الذين لم يشتركوا بذبح هذا الوطن الصريح،
والذين يحاولون بقوة الحب، والإيمان، وتكران
الذات، انتشاله من بين حطام الأنقاض والخراب.
إلى الذين ينتظرون منذ عقود أن يفيق من
غيبوبته، ويتعافى من محنته، ويرفع نخلته المحنية
رأسها من جديد، ويعود العراقيون من سبيهم
المخيف داخل الوطن، ومنافيهم وملاذاتهم الآمنة
في خارجه..

أهدي هذه الصفحات...

obeikandl.com

وتر في دائرة الليل

في ظهيرة يوم صيفي، انسلت سيارة من بين جموع المشيعين، كأنها مركب يمخر موج البحر، كانت تحمل نعشًا على سطحها، وبعد أن عبرت جسرًا على نهر صغير، صارت تنهب طريقًا مسفلتًا وسط حقول مفتوحة على جانبيه، متجهة شمالاً مارة بمدن وبلدات وقاطعة سهويًا تكسوها نباتات برية وأشواك الطرطيع والعوسج، فيها من الرتابة ما يعطل ويبلد الإحساس بالوقت ويثير في النفس الملل، فتقتحم الكآبة بقوة تمنع المسافر من التطلع إلى جانبيّ ذلك الامتداد اللامتناهي، لأرض تكرر نفسها بغباء يثير الاشمئزاز في هذا الطقس الحار، ولكنها قبل أن تجتاز منتصفه، تظهر فيه بعض المناظر التي تخدش وجه الطريق بظهورها المفاجئ، فثمة أشجار العرعر المتناثرة على مسافات متباعدة تكسر شيئًا من رتابته، وحيث إنه سينتهي قبيل هبوط الظلام بمقبرة وادي السلام[1] التي تمتد على أرض بحجم مدينة كبيرة، فهي وإن كانت مدينة أموات إلا أنها تموج بحركة الأحياء في ساعات النهار، من زائرين رجالاً ونساءً وأطفالاً خاصةً في المناسبات الدينية، ولكنها تهدأ عند حلول الظلام وتدخل في حرمة الأرواح التي تسكنها، كانت تسير

(1) مقبرة وادي السلام: وهي أكبر مقبرة في العالم الإسلامي تقع في مدينة النجف الأشرف حيث مرقد الإمام علي عليه السلام.

منطلقة بسرعة في اتجاه معاكس للريح، التي كانت تهب بشدة فترفع أطراف الغطاء الذي يلف النعش، وكأنه هو الآخر يطير فوقها.

كان السائق يجلس لوحده؛ يدخن بهدوء؛ ينظر أمامه للطريق الممتد الذي يعرف كل شبر فيه، فقد تآلف معه ورافقه سنوات عديدة حتى صار بإمكانه أن يغمض عينيه ويرى كل شيء مرسومًا بأدق التفاصيل في رأسه. كان يختلس النظر للشاب الجالس في المقعد الخلفي محاولاً مغافلته لإخراج الربعية وامتصاص رشفة سريعة من الخمرة، لكن عيونهما تلتقي كل مرة؛ فيعدل عن محاولته؛ مشعلاً سيجارة ورامياً بصره في الفراغ؛ ومتشاغلاً بمتابعة الطريق.. تذكر معاناته في شتاءات بعيدة من ماضي مهنته، عندما يتوقف عمله أيام المطر؛ عندما تتقطع أوصال الطريق الترابي ويصبح السفر عليه مغامرة خطرة، يستحيل عندها أن يخاطر سائق ما؛ مهما كان متهوراً بنقل ميت من مدينة جنوبية إلى مدينة أخرى؛ تبعد أكثر من ثلاثمائة كيلومتر. وحيث كان الأموات يحفظون في قبور وقتية إلى حين انقطاع الأمطار وجفاف الطريق، بعدها تدب فيه الحياة للأحياء والأموات على حد سواء. كان يرى في ذلك عزاءً لذوي الفقيد؛ لأنه يتيح لهم وقتًا كافيًا لزيارته خاصةً في الأيام الأولى لرحيله؛ حتى تحين زيارة الأربعين الذي يتجدد فيها الحزن إضافة إلى ما يرافقها من طقوس متعارف عليها في مدن الجنوب، وبعد ذلك يصبح نقله إلى مثواه الأخير الدائم أمرًا حتميًا وفيه راحة ورضى للنفس. كان الأطفال في كل الأحوال يدفنون في مقابر المدينة مع الفقراء والغرباء.

كان الشاب يقبع في مقعده الخلفي لائذًا بالصمت، يفكر على نحو موصول بالراكب الثالث الذي يرافقهما في رحلتهما؛ والمسجى فوق رأسيهما في نعشه المتجه رأسه أيضًا صوب الشمال، اثنان في حالة جلوس؛ تتقاطع عيونهم مع خط الطريق الممتد أمامهم، أما الثالث فعيناه متجهتان أفقيًّا مع سماء تلتهب فوقهم بنار شمس تموز، تخيل أن والده يريد أن يلجمه عن المضي بأفكاره الغريبة هذه، وقبل أن يتوقف عن التفكير؛ فاجأه السائق بسؤال عن سبب وفاته. فكر ماذا يقول لهذا المتطفل؛ أيقول له إنه سقط عن فراش زوجته ومات لساعته، لا يجرؤ أن يقول ذلك؛ لأنه ربما لا يصدقه وربما يظن أن ذلك مجرد تمويه، والحقيقة أن المرأة التي هي أمه دفعته أو ربما رفسته. تظاهر بعدم سماعه وانشغاله بالتطلع للطريق، لكن السائق كرر سؤاله هذه المرة بصيغة أخرى.

- المرحوم.. هل كان يعاني من مرض؟

- نعم كان مريضًا جدًا.

- وكبيرًا في السن؟

- لا لم يكن كبيرًا جدًا.

وبعد ذلك عندما شعر السائق أن مرافقه لا يرغب بمواصلة الحديث، فتح مسجل السيارة؛ ففمرت سورة ياسين المكان بجوٍ من الخشوع والرهبة، أحدثت صدمة في نفسه وذكرته بجبروت الموت، رغم أنه قريب منه دائمًا وليس بينهما سوى سقف هذه السيارة، ورغم أنه اعتاد نقل الأموات كلما دعت الحاجة لذلك، ولكنه لا يدري لماذا جثم الموت بكل وطأته على أنفاسه، وكأنه هو من يقوده ويسخره لهذا الغرض،

كان يريد أن يدحض هذه الفكرة ويبدد أي تأثير لها في نفسه، وأن يقنع نفسه بعكس ذلك، وبأن الموت حق وأنه دين في رقبة كل إنسان، وأن وظيفته كناقل للأموات أهون كثيرًا من عمل الغسال والدفان، الكل في النهايه يؤدون عملاً في غاية الأهمية ولولا هؤلاء جميعًا لانتصر الموت وأخرج لسانه ضاحكًا من الجميع.

كانت السيارة كلما مرت على بعض الفلاحين العائدين من حقولهم، رفعوا أيديهم بالتحية، فكان الشاب الجالس في المقعد الخلفي يرد التحية لهم، وقد رآه السائق في إحدى المرات من خلال المرآة التي أمامه.

- إنهم لا يحيوننا.

- فمن يحيون إذن!

- لا أحد.

- يحيون الميت إذن؟

- بل هم يحيون الموت.

كانت الشمس في دقائق غروبها الأخيرة قد ألقت مشاعلها على السيارة، فبدا النعش كأنه يحترق في لهيبها الناري، اقتربت الآن من مرقد أحد الأولياء التي تملأ أضرحتهم السهل الرسوبي من أرض السواد، فأطلق السائق نفيرها طويلاً موجعًا؛ رجّع الهواء صداه داخلها بعد أن اجتازت المكان. كانت هذه اللحظات من الغروب تثير في نفس الشاب إحساسًا قويًا بالضياع والخوف، شعورًا بالأسى؛ والحاجة للعزاء والمواساة، مزيجًا من الشفقة والرغبة بالهروب

والتواري ببساطة من هذا العالم؛ الذي يلح عليه متحديًا ومستمرًا في تعذيبه؛ والنيل منه بكل وسائله، وهو لا يملك وسيلة واحدة للرد عليه، كل ما يستطيع فعله، هو الاستسلام باستخذاء مؤلم يستفز كرامته، ولكنه لا يستطيع التمرد، كأنه يستسلم مضطرًا لقدر محتوم لا مناص منه، فالإنسان مقهور في طرفي عمره أوله وآخره، وبالرغم من حبه لوالده؛ فقد تماسك رغم فجاءة الموت، كان يقر بأن الموت استحقاق مؤجل على كل نفس، وأنه كما كان يقول والده حقيقة هائلة، ولكنه ليس مخيفًا لمن يتعايش معه، حقيقة نحاول المواربة والتغاضي عنها، مع أنها حقيقة ملموسة؛ عرفها الإنسان قبل غيرها من حقائق الحياة، ولكننا نتحاشاها دائمًا؛ ولا نجبر عقولنا على الكشف عن مكنونها، نتعامل معها بحيادية في غمرة حياتنا اليومية، كأنها لا تمت للواقع بصلة؛ أو أنها تحدث خارج الزمن، لا يهم الناس كثيرًا أن يفكروا بها، أو يدرجوها في تيار حياتهم اليومية العادية؛ لأنها تنتمي إلى عالم سلطوي تضمحل فيه الإرادة إلى حدود قصوى من الانسحاق والتلاشي؛ بل ربما لدرجة العدم، حيث يتقزم الإنسان ويتمنى أن يتوارى عن الأنظار لشدة امتهانه لنفسه؛ والإشفاق عليها من أن تُزج في معركة غير متكافئة تمامًا. انجرف الشاب في تأملاته حول الموت.. نحن في نهاية المطاف لا نستطيع أن نتوقف متى شئنا ولا نملك الحق حتى في التقاط الأنفاس، بالضبط مثل هذه السيارة التي تتحرك منذ ساعات لتبلغ الغاية المرسومة لها، وفي النهاية تتوقف عن الحركة عندما تنتهي إلى مقصدها،

وحينما تعود مجددًا للحركة فأنها قد تسير في طريق آخر معاكس، وفي وقت مختلف، وبإرادة من سائقها الذي له الحق أن يتحكم في تفاصيل حركتها وسكونها وما عليها إلا الانصياع لإرادته.

اليوم توفي والدي.. وأنا أعرف الآن اليوم والشهر والساعة، وكل التفاصيل الأخرى، وبعد سنة أو سنتين، سأتذكر الشهر والسنة اللذين توفي فيهما، ولكنني سأنسى اليوم والساعة، وبعدها سأنسى الشهر أيضًا، ثم بعد ذلك تمر السنة وأنسى المناسبة برمتها، حتى تمحى من الذاكرة تمامًا.

لماذا نتحاشى ذكر الموت؟ مع العلم أن الدين حث على استذكاره عظة، واعتبر نسيانه غفلة، تذكر الآن شيئًا من شعر قاله شاعر روسي نسي اسمه عن خشية الناس من الموت وتجنبهم الخوض به، يقول: ولو أننا اعتدنا زيارة المقابر، والتنزه بين القبور، منشدين ترانيم بديعة، وسط بخور زكي الشذا، لارتاحت قلوبنا، وهدأت مخاوفنا الموجعة من موت محتم.. وعندئذ سيبتسم الموتى تحت التراب ويقولوا لا تخافوا.. الأمر على ما يرام.. لم أفكر يومًا أن أطور العلاقة بيننا خارج إطارها الأبوي، كم من الأسئلة كانت تدور في رأسي؛ لكنني ما كنت أجرؤ أن أسأله عنها، كنت أفكر أن أكتب له رسالة أفرغ فيها كل هذه الأسئلة، التي لم تعد الآن ذات فائدة، وصار لزامًا عليّ أن أجد أجوبة عنها.

في مرحلة من حياتي؛ كنت لا أتصور أن الآباء يخذلون أبناءهم؛ ويهربون من مسئولياتهم بالفرار للموت، حين يكون الأبناء معتمدين عليهم وبحاجة لهم.

كانت ثمة خيوط مائية؛ من الثلج الذائب؛ الذي يغطي الجثمان؛ تتسلل من شقوق خشب التابوت؛ وتنزل ملتصقة بزجاج النافذة؛ تتلوى على سطحها الأملس، ولكن الريح سرعان ما تسحقها بقسوة، فتتبعج وتفقد أشكالها الأفعوانية. وكأن رؤيته لتلك القطرات المائية قد قطعت عليه مشقة الاستمرار في اقتناص الذكريات، وأثارت في نفسه حكايات سمعها من أمه عن الأطفال الذين يموتون صغارًا، إنهم يلقون أمهاتهم ويستقبلونهن بكئوس المياه المبردة يوم المحشر.. قال منبهًا السائق:

- الثلج بدأ يذوب وأخشى أن.... قاطعه السائق مطمئنًا.

- لا تخف اقتربنا كثيرًا وبعد قليل سنصل للمغتسل ولن نحتاج بعد ذلك للثلج فهناك يجهزون الميت بما يحتاجه قبل الدفن.

وماذا بعد ذلك؟

- المكتب.

- أي مكتب؟

- مكتب الدفن فهم يعلمون بمجيئنا.

ومرة أخرى اقتسما الصمت، وعادا ينسحبان إلى عالميهما الداخليين ويغرقان في أعماقه التي لا قرار لها. كان الشاب يريد أن يضغط على ذكرياته مع أبيه لتكون في أروع صورها؛ فوجد أنها أشبه بعملة معدنية، أحد وجهيها الإنسان والوجه الآخر الحرب، فهو لا يستطيع أن يرى والده دون أن تكون الحرب جزءًا من نسيج هذه الذكريات، لقد نحتت الحرب الوجه البارز والناتئ لشخصيته، كان والده يقول:

لقد قدتني كصخرة صغيرة في جبل هائل من العذاب والقهر، وكان يقول أيضًا: بالرغم من أنها لم تصبني حتى بخدش بسيط، لكنها مزقتني تمزيقًا..

فكيف إذن لهذه الصخرة أن تتهشم لمجرد سقطة تافهة. كان يرى الإنسان مهزومًا في والده عندما يتعلق الأمر بالعالم، ولكنه كان ينتصر على نفسه في أحيان كثيرة ومواقف صعبة، ومهما حاول الإنسان أن يوهم نفسه بالانتصار فهو مغلوب على أمره في نهاية المطاف، ولن يشفع له انتصاره بالادعاء بالقناعة والرضا؛ أو بالغرور والتبرير.. أن تطوي الماضي كورقة في كتاب، فلا ترجع إليها مرة أخرى شيء فيه خداع للنفس؛ لأن الأجدى أن لا تفعل ذلك في المقام الأول، وأن تترك الماضي يمارس سطوته ولكن دون تأثير كبير... ها أنت عدت تولد أفكارك من جديد دون رقابة من عقلك، تطلق العنان لها تجري كما تهوى وتشتهي، كان الشاب يشعر وربما يسمع هذه الكلمات تصدر من أبيه، كأنه يريد أن يوبخه من التمادي بلا حدود في أفكاره المنفلتة، ماذا أبقت لنا الحرب بعد أن خلطت الأشياء بعضها ببعض، وصار من الصعب جدًا أن تعثر على حقيقة لا غبار عليها، يتفق عليها الناس جميعًا، الادعاء والصدق يختلطان ببعض أو يطفو أحدهما على الآخر.. وكان والده يقول دائمًا: إن هذه الحرب هي مقدمة طويلة لكتاب الجحيم الذي لم نقرأه بعد.

- أبي هل تسمعني، هل كنت مغفلاً إلى هذا الحد طوال الثمان سنوات، ولم تفهم أنك قد تصبح بيدقًا مقتولاً في رقعة الشطرنج هذه.

- لا لم أكن مغفلاً كنت أفهم اللعبة منذ بدايتها وكنت أعرف أن الشاه لن تموت إلا بعد أن تموت كل البيادق.

كانت السيارة قد توقفت وهو لا يزال غارقًا في لجة أفكاره،

- ماذا حدث؟

- لا أدري.. انحرفت السيارة وجنحت عن الطريق ولا أعلم أين نحن الآن!

- كيف حدث ذلك ومتى؟

- لا أدري، ربما غفوت قليلاً..

- وماذا نفعل الآن؟

- لا تقلق سنهتدي للطريق وإذا لم نستطع سننتظر حتى ينكشف الظلام.

- وماذا عن مجلس العزاء والأهل هناك ينتظرون أن نخبرهم بوصولنا مقبرة الوادي وبإتمام الدفن.. وقد يتصلون بالمكتب ويعلمونهم عن تأخرنا بالوصول.

- المرحوم رجل طيب ومن أهل الله وحاشاه سبحانه أن يتخلى عنا..

- ما الوقت الآن؟

- الوقت متأخر ويبدو أننا ضيعنا ساعتين ونحن ندور في نفس المكان.

كانت السيارة تقف على أرض خلاء لا أثر فيها لحياة كأنها مركبة فضائية هبطت على كوكب مجهول، أو

obeikandl.com

وترًا صغيرًا في دائرة الليل الكبيرة؛ التي غطت المكان بظلام كثيف؛ واستدعت قواه الشريرة من كل مكان لتحيط بهم، كانا ينتظران شيئًا يحدث لينقذهما من هذه المحنة، تحفزا لأي شيء طارئ فتسلحا بقضيبين حديدين، وصارا في داخل السيارة سجينا الخوف الذي شل حركتهما، وفجأة تخيلا أن مجموعة من السيارات أضاءت مصابيحها وهي تتقدم نحوهما..

- أترى ما أرى؟

وساد صمت رهيب بدده عواء وحشي، أعاد إليهما صوابهما فاستعدا للمعركة التي أصبحت وشيكة، كانت الضواري تندفع نحو السيارة بشراسة.

- لو أحتمينا بالسيارة فلن تنال منا..

- ولكنها سوف تثب على التابوت وتنهش الجثة..

خرج السائق ووقف أمام السيارة، واستعد للقتال بينما تسلقها الشاب واستقر على سطحها فوق التابوت، وبدأت معركة ضارية كان العواء المخيف يختلط بصراخهم اليائس، ثم سُمعت بضعة إطلاقات نارية جعلت الضباع تفر من ساحة المعركة، كان مجموعة رجال مسلحين قد أحاطوا بالسيارة، ولما رأوا النعش؛ أطلقوا زخات من رصاص بنادقهم، عاليًا نحو سماء كانت في صمتها المريب كالمقابر وفي حلكة لونها كالحبر الأسود.

الحوذي العجوز

كان يجلس على كرسيه العالي كما لو أنه ملك يتربع على عرش مملكته، وليس مجرد حوذيًا كل رعيته هذان الحصانان العجوزان، وهذه العربة القديمة وسوطه الذي لا يفارق يمينه، والذي ما مس به أبدًا ظهري هذين الحيوانين. يسميه الناس الحوذي العجوز..جاوز الستين ولكنه قوي البنية منتصب القامة، يعتمر في صيف الجنوب اللاهب خوذة من الطراز الأنكليزي الاستعماري، كانت تلبس في المناسبات العسكرية، تتصل بها من جهة الظهر قطعة قماش بنفس لونها الشبيه بلون صوف الخراف، تتدلى على عاتقه وتحجب رقبته عن الشمس، أما باقي هدمه الصيفي فقميص فانيلا أخضر داكن بدون أكمام وسراويل شبيهة بلباس أكراد الشمال، وفي شتاء السنة الجنوبية الموصوف بأمطاره غير المتوقعة، يرتدي سترة كاكية اللون فوقها معطف مطري طويل خردلي باهت اللون في قبة ياقته قلنسوة يغطي بها رأسه الأصلع، ولا يفهم أحد غيره هذه التشكيلة الغريبة من اللباس. ولا يعرف له أحد أيضًا عشيرة ينتسب إليها، وذلك شيء غير مألوف في مدن السهل الرسوبي العظيم المسمى قديمًا سهل شنعار، الناس يتباهون بأنسابهم العربية ويعدوها مفخرة ومدعاة للأمان، ومع ذلك فهو لا يشعر بأنه غريب أو

مقطوع من شجرة، كما يحلو للبعض أن يطلقوا على أمثاله من المقطوعين، هذه التسمية التي فيها شيء من الاستهانة والاستخفاف أو الإذلال أحيانًا، وإذا كان هناك ثمة أشياء تستحق أن يفتخر ويتباهى بها فذلك حبه الطاغي لحصانيه وللأطفال، فهما في مرتبة لا يسمو عليها سوى حبه لله ولأوليائه الذين كان يذهب لزيارتهم في المواسم مع المرحومة زوجته، وهو أثناء عمله صموت دءوب يداري بهما على عصبيته المنفلتة أحيانًا، ولكنه لا ينفجر إلا نادرًا. إنسان ودود ومحب لحصانيه وللأطفال بشكل يلفت الانتباه.

كانت المحطة التي تتجمع فيها عربات الخيل هي جزء من الكورنيش وقريبة من المسناة النازلة للنهر ببضعة درجات، وعلى الجانب الآخر المقابل لسوق المدينة المسقوف، الشيء الوحيد الباقي من تراث الزمن العثماني، كان هذا الموقع مملكته الصغيرة التي أمضى فيها أحلى سنوات شبابه، ست عربات كانت عربته أجملهن على الإطلاق، تتبختر بينهن كالطاووس بألوانها ونقوشها ورياشها الجميلة وفتوة حصانيها الأدهمين.

راحت تلك الأيام الخوالي أيها العجوز، وصار وقوفك هنا مكملاً لمشهد المدينة الجديد، لا.. أنت مخطئ يا رجل نحن هنا من يزين المكان ويضفي عليه بهجته التي خبت.

كان يريد أن يسترسل في حواره مع نفسه، ولكنه انشغل بمراقبة الناس المتدافعين بالأيدي والمناكب والمتعالية أصواتهم، المنحشرين في فتحة باب الباص، كانت سيارات الأجرة لا يركبها إلا الذين على عجل والذين ينوءون بأحمال

ثقيلة والمرضى القاصدين المستشفى والعشاق الشبان الهائمين والأغراب. وقليلون هم من يتذكرون أنه كان يومًا ما شرطيًّا يحرس البوابة الحديدية السوداء الكبيرة لسجن المدينة الوحيد أيام الحكم الملكي، وأنه كان يقف عند فتحتها الواطئة التي لا تسمح لمرور أحد ما لم يحني قامته عند المرور منها، وكانت السدارة التي يعتمرها ذات طراز عراقي قديم وتقليد أنكليزي استعماري تحمل في غرتها مفتاحين متقاطعين هما رمز السجان الذي لم يكن آنذاك بأحسن حال من سجنائه، فشظف العيش جمع الكل تحت سقفه الواطئ، وربما علمه السجن أشياء كثيرة: منها أن الإنسان لا يكون حرًا لمجرد أنه يعيش خارج أسواره، وعندما تركه احتفظ بصداقات حميمة مع الكثيرين من نزلائه الذين خرجوا وظلوا على اتصال ودود معه، ولا أحد يدري متى صار حوذيًّا وأصبحت حياته كلها ملتصقة بهذه المهنة، هذا النوع من الاستحواذ الذي يقع فيه الإنسان فريسة إلغاء واع لكل شيء يربطه بنسيج العلاقات الحياتية لدرجة الشعور بعدم حاجته إليها، وأن الارتباط بها إما أن يصبح شيئًا من الماضي أو شيئًا زائد لم يعد ذا أهمية، وكان عندما يفرغ من عمله ويذهب لبيته للراحة يحرر الحصانين من العربة، يعتني بنظافتهما ويفحص حوافرهما ويقدم لهما الطعام ويمسح على رأسيهما وعرفيهما وخطميهما، ويكلمهما أثناء الأكل ويسقيهما الماء بيده، الحوش الكبير كان هو المكان الذي يجمعهم أثناء الصيف فكان يسمع حمحمتهما أثناء الشرب فيطربه الصوت، لا شيء في هذه الحياة يصادر فرح الإنسان

عندما يخرج من قوقعته ويكسرها، ويدخل في دائرة أوسع يقترب فيها من نبض الحياة الحقيقي الذي ينتفض في شرايين كل الأحياء، شعور قلما يجربه الآخرين يتفجر أحيانا بصورة تلقائية فلا يعد يحس بوجود أدنى فرق بينه وبينهما، فهو يشاركهما الهواء والماء والضوء، ولولا أنهما لا يحبان طعامه لكانوا ثلاثتهم يأكلون من طعام واحد، وربما ستحتم عليه هذه العلاقة يومًا ما أن يشاركهما طعامهما، كان عندما يراهما أمامه يجران العربة ويركضان بنسق منتظم يشعر بالزهو كأنه هو أيضًا يعدو معهما، وأن دماءً حارة بدأت تتحرك بقوة في عروقه، وكأنه يرى بعينيه أن شرايينًا كثيرة أخذت تمتد منهما لتتحد مع شرايينه، وأن الدماء الحارة صارت تدور في أجسادهم الثلاثة وكأنها جسد واحد متشعب إلى ثلاثة أجزاء، لكنها جميعًا: تتغذى، تعمل، وتتحرك معًا، كان في حركاته المتوائمة والمتساوقة مع الحصانين برهان على شدة المضاهاة والاقتراب منهما، وفي حر الصيف كان يفتح منخريه بنفس الطريقة التي يفتحانهما عند التنفس، وفي الشتاء كان البخار الذي يخرج من منخريهما يحس به دافئًا يخرج من رئتيه، حتى في أحيان كثيرة كان يشعر بأن هذا الاتحاد صار يمتد ليشمل العربة نفسها، في درجة من الذوبان لا يفهمها إلا الصوفي في أوج نسيانه ونكرانه لنفسه.

السجن علّمه الشيء الكثير، لكن روحه كانت محبوسة كعصفور في قفص: رفرفت كطير عندما رأت شابًا يافعًا يقبع في زنزانته، ويومًا ما أخبروه أنه أُغمي عليه،

فصرخ: يا إلهي ماذا سيفعل السجن أكثر من ذلك وأي جروح لا تندمل سوف يحفرها في روحه الغضة. سأل متألمًا:

- ما مشكلة هذا الشاب؟

- يُغمى عليه كلما يسمع بإعدام أحد السجناء..

- وهل هو أيضًا محكوم بالإعدام؟

- لا، محكوم حكمًا طويلاً، لجريمة قتل..

- يا إلهي هذا الطفل قاتل!

- قتل أخته بدافع الشرف.

كان الشرطي الجلاد يحدثه عندما يلتقيه في أروقة السجن عن مشاهد الموت التي يعيشها عند تنفيذ الأحكام، عن ضعف الإنسان وضآلته أمام الموت وخوفه المريع منه، فيتساءل بحزن: كيف يخاف القاتل من شيء كان هو سببًا في حدوثه، ولماذا ينهار عندما يقترب منه، كان يتجنب الجلاد عندما يصادفه وكأنه بنظره قاتل محترف، رغم أنه يعرف أنه إنسان عادي وأنه يؤدي عمله كأي إنسان آخر، ورغم صداقتهما الوظيفية الطويلة كان لا يشعر بالراحة والاطمئنان إليه، وفي إحدى المرات سحب يده بقوة عندما صافحه، السجن حفر في أعماق نفسة جروحًا غائرة عصية على الشفاء، والحياة علمته أن الحب وحده هو العلاج، وأن بين الحب والبغض خطوة قصيرة يتقهقر فيها الإنسان إلى الوراء فيستبدل مشاعره الملائكية الطيبة بأخرى شريرة وذلك عندما يصر بحماقة على مكابرته وتظاهره وادعائه الكاذب بالقوة، الغرور والجهل والهروب كلها وسائل خادعة لإخفاء عجز الإنسان وضعفه.

عندما توفيت زوجته بكى بمرارة وحزن أيضًا عليها، لا لأنها ماتت واختفت من حياته ولكن لأنها تركته وحيدًا في هذه الحياة، وشيئًا فشيئًا تعلم أن يعيش مع وحدته، وعندما اشترى الحصانين والعربة شعر بأن عائلة جديدة ظهرت للوجود في حياته، وأنه لم يعد ذلك الإنسان الذي يعاني من وطأة الوحدة الشديدة على نفسه.

في فترة ما بعد ظهيرة يوم صيفي ساخن وقبيل الغروب يقود حصانيه لفرضة النهر قرب الجسر الحديدي الكبير، الذي بناه الأمريكان قبل الحرب بسنوات عديدة، ثم أغاروا عليه بعد انتهاء حرب السنوات الثمان وكسروا ظهره المحدودب قليلاً، وهناك ينزل للماء فيستحم معهما، ويسمح للأطفال بركوب ظهريهما، كان الأطفال فرحين جدًا، يضحكون عندما يزفران الماء من منخريهما، ويحركان رأسيهما بقوة فيصيبهم وابل من رذاذ الماء المتناثر من عرفيهما، كانت تلك الأمسيات من أيام الجمع تنسيه تعب الأسبوع كله.

وفي ليالي الصيف الحارة كان النوم متعة عظيمة في باحة الدار المكشوفة، وقمر يرسم على ظلالها ضوءه الناعم كاشفًا عتمة بعض الزوايا البعيدة، شيء مشحون بالسحر ومشبع بالأسرار، كان إحساسه بوجودهما قريبين منه يجلب النعاس لعينيه بسرعة، فيغط في سبات عميق، ويحلم بجياد تجري، لا يحدها المدى حرة طليقة في براري وسهول خضراء، يملأ صهيلها الأفق، جمالها وحركاتها الرشيقة تأسر القلوب وتخلب الألباب، لا يريد أن يفيق من تلك

الأحلام، يرى زوجته بين مجموعة من الأطفال منهمكين بتزيين العربة والحصانين بالبالونات الملونة والزهور الجميلة والأوراق البراقة، وهم يدورون حوله وزوجته تبتسم بفرح لهم ثم يرفعونه ويضعونه في العربة المزركشة بالزينة وهم يهتفون له، وعندما يصحو من نومه ليلاً ليشرب الماء ويتفقد الحصانين يجد أن عينيه قد ابتلت بالدموع، وعندما يعود لنومه يكون مثقلاً بمشاعر الحزن والفرح فكلاهما يصبحان شيئًا واحدًا يفجران في أعماق روحه طاقة هائلة من الحب والحنان. والشتاء وإن كان فيه كآبة وأمطار ووحول تملأ الشوارع وشحة في الرزق، إلا أنه فرصة للراحة والاستمتاع بدفء الشمس في باحة البيت حيث يقضي بعض أيامه في حالة هدوء وتأمل، وفي الليل كان يدخلهما إلى إحدى غرف البيت الكبيرة وينام معهما.

كان راضيًا عن حياته طالما لا يعكرها الابتعاد عنهما لأي سبب كان. وفي أيام الأعياد، يخصص اليوم الأول نزهة مجانية للأطفال، يملأ عربته بهم ويدور بهم في شوارع المدينة وأماكن اللعب وهو في قمة السعادة لصياحهم وضحكاتهم وشقاوتهم.

كان ينتظر طفلاً ويحلم به دائمًا وعندما توفيت زوجته كف عن ذلك ولم يفكر بالزواج مرة أخرى، وهو راض الآن أن يكون أبًا لحصانيه. ولم يتوقع أبدًا أن يموت أحدهما، يقلقه دائمًا أن يموت هو قبلهما ويتركهما لمصير مجهول، يرتعب من مجرد التفكير بذلك، يتخيل أنهما سيستغلان ويعيشان على المزابل ويتعرضان للضرب، وستملأ القروح البشعة جسديهما والذباب يتكوم عليها، وفي النهاية

سيواجهان مصيرًا تعيسًا، كان ذلك يرعبه ويقلقه كثيرًا، وعندما مرض أحدهما ثم نفق، كان يقول لقد مات اليوم جزءًا مني، وكان أصدقاؤه يأتون لمواساته كأنهم يعزونه بولده الذي لم ينجبه ولم تكتحل عيناه برؤيته.

- فكرت أن آخذ الأدهم ونعبر الحدود إلى ما وراء الجبل، هناك سنقضي أيامنا الباقية.

- المنطقة خطرة ومليئة بالألغام المتروكة من حرب الثمان سنوات.

- لا تخافوا أنا أعرفها كراحة يدي هذه.

وقال في نفسه إنهم يجهلون أنني كنت مهربًا، هذا السر الذي لم يعرفه أحد، عندما كنا نحمل أجولة الشاي على ظهور البغال والخيل، ونعبر بها الحدود الخطرة وراء الجبل، المنطقة أعرفها أكثر من معرفتي بشوارع هذه المدينة. كان العجوز في شبابه واحدًا من المهربين الشجعان، يجتمع برفاقه ليلاً في أحد بيوت الضاحية الشرقية للمدينة حيث يتاخم قفرها الحدود التي تبزغ منها الشمس، يكسرون الصناديق الخشبية الأنكليزية الصنع، ويستخرجون الشاي السيلاني الأصيل الفواح برائحة زكية منعشة، بعد إزالة الغشاء الألمنيومي الفضي الرقيق، ويعبونه بجوالات سميكة، يعثرون في كل مرة كالمعتاد على فيل صغير من العاج في كل صندوق، مرة أسود وأخرى أبيض، هدية تجلب لهما الفأل الحسن إذا كان أبيضًا، أما إذا كان أسودًا مثل ليلتهم تلك؛ فالفأل سيء وعليهم توخي الحذر من مخافر الحدود وعيون الرصد.

وفي أحد أيام الربيع حيث تضج المنطقة الحدودية بشتى أصناف الزهور البرية الجميلة والطيور والغزلان وغدران المياه التي حفرت كلها في ذاكرته وخياله صورة فردوسه المفقود، والتي احتفظ بأروع صورها الجميلة غضة نضرة ذات سحر أخاذ وبهاء أسطوري، قبل أن تعبث بها يد الحرب وتحيلها مقبرة موحشة، حطام أسلحة وركام حديد، يجثم الموت بقبح على طول سهولها وروابيها التي كانت خضراء..

قاد العجوز حصانه واتجه ميممًا وجهه صوب الحدود التي يعرفها جيدًا، وراء الجبل العالي، وتوغل بعيدًا متناسيًا أنها لم تعد كما كانت من قبل إلا في ذاكرته وخياله الذي يسابقه ويطير به بلهفة المحب وشوقه للقاء الحبيب، تلك الصورة التي لم تستطع ثمان سنوات من الحرب أن تلغيها من خياله، بكل ما في تلك الحرب من شراسة ودمار، ومنذ ذلك الربيع لم يره أو يسمع عنه أحد أبدًا...

مويرد

تصغير محبب لمارد

كلما خطر على بالها، أمطرته وابلاً من شآبيب الرحمة، رافعة كفين للسماء باطنهما مخضبتان بحمرة الحناء الداكنة، وظاهرهما بزرقة الوشم الفيروزية؛ الريفية النقش، وكعادتها كانت تزيح العصبة السوداء التي تشد رأسها، عن ناصيتها قليلاً، لتكشف شعرها معتقدة أن ذلك من شأنه أن يسرع في الاستجابة للدعاء.

وفي الريف الجنوبي الفقير، الممتد على ضفاف الأنهار المتهادية في جريانها، وفوق أوجه الأهوار الساكنة مياهها، كانت الريفيات يكشفن صدورهن ويبرزن أثدائهن، ويرفعنهن قليلاً للأعلى عند الاضطرار لكشف سوء أحاق بهن.

كانت أمي بعد كل دعاء تتبرع به لجدي، تلتفت لي بحنان وحب وتوسل إلى الله، أن يطيل عمري لتزداد سنواته بعدد حبات تراب قبره.

كنت صغيرًا لا أفهم هذا الدعاء، أكتفي بالنظر إليها والتبسم في وجهها، فتبادلني ابتسامة وضيئة وضمة حانية إلى صدرها.

كنا صغارًا بعمر عصافير بساتين النخيل، نخاف من

القبر المدفون فيه جدي، في الحجرة الملاصقة لجدار المسجد الشمالي المعاكس لاتجاه القبلة، كان المسجد في الأصل مغتسلاً للأموات، ثم صار خربًا خاويًا مهجورًا من المصلين مع مرور الزمن الجنوبي البطئ المتأد، ولطالما حاولت أمي أن تبدد مخاوفي من القبر الدارس الذي لم أره حينذاك، ولكنه كان دائمًا موجودًا في مخيلتي، تقول لي: كان جدك رجلاً طيبًا، يحبك بل مولعًا بك، يحملك بين يديه ثم يشمك ويضمك إلى صدره عندما كنت لا تزال في القماط، وكان يقول لأبيك فرحًا مزهوًا وهو ينظر إلى وجهك المستدير: هذا الطفل يشبهني.. أكثر منك، فيرد أبوك ممازحًا: شيء طبيعي فأنت أبي وأنا أشبهك، وهو حفيدك ولابد أن يكون الشبه بينكما أكثر، كانت محاولات أمي بالرغم مما تسرده من حكايات عن محبته لي، تذهب أدراج الرياح بسبب القصص التي يبثها بعض الأولاد الأشقياء الأكبر سنًا منا، على زعمهم أنهم يسمعونها من عجائز المحلة، والحقيقة أنهم يختلقونها من وحي خيالهم الشيطاني، فكانت تثير مخاوفنا وتجعلنا لا نفكر مطلقًا في الاقتراب من المكان وخاصةً عند الغروب وبعد حلول الظلام، حيث تراود خيالنا أشباحًا ومخلوقات مرعبة تخرج من المسجد وتلاحقنا في زقاقه الضيق المترب، ومرة سمعنا أن عجوزًا زنجية كانت تجلس على عتبة دارها تلقت في صدرها حجرًا كاد يودي بحياتها، ولا يعلم أحد من هو الرامي، بعدها علمنا أن أحد هؤلاء الأولاد العفاريت فعل ذلك ظانًا أنها جنية سوداء، وظانة هي أن جنيًا رماها متضايقًا من جلستها هذه عند الغروب، الوقت الذي يتحتم على النساء الانزواء في بيوتهم، ومرة سألت أمي

عن حكاية مغتسل الأموات، فأخبرتني: بأن جدي اعتاد أن يصلي الفجر في بستانه، عندما رأى جماعة من النسوة والرجال عند جرف النهر، النساء ينهمكن بغسل امرأة ميتة بينما الرجال يعملون سترًا من عباءاتهم حرمًا لها، حتى إذا ما أُنجزت المهمة وأدرجوها بأكفانها، حملوها بتابوت من جريد النخل ومضوا لدفنها، اقترب من المكان وقال: سأبني هنا في هذا المكان مغتسلاً للأموات قربة لله تعالى، وفي نفس ذلك اليوم قام بفرز قطعة أرض من بستانه فصارت مغتسلاً للغرباء والفقراء، وبمرور الزمن الجنوبي البطيء كثرت وسائط النقل فصار الناس يدفنون أمواتهم في مقبرة وادي السلام، التي تبعد عن مدينتنا الجنوبية نصف نهار بالسيارة في أيام الصيف، أما في الشتاء فلا أحد يعرف بعد كل هطول للأمطار، عندما تعصر السماء دموعها، متى تأتي الشمس بمناديلها الدافئة فتجفف الطرق الترابية الموحلة، لتستأنف السيارات حركتها العادية، وتدريجيًا انتفت الحاجة للمغتسل، ولكنه مع ذلك ظل يحتفظ ببعض التوابيت وقفًا للمسجد، وبخادم قدم من أعماق الريف الجنوبي، فيه شيء من فحولة أنكيدو وفطرته الطيبة، ممزوجًا بسمرة ترابه وبمسحة من الجنون، وكالقصب المنيف بقامته المديدة، قوي البنية كالثور، أطلقنا عليه مويرد، وظل هذا الاسم ملتصقًا به كما هي الحروب ملتصقة بنا دائمًا، ولا أحد يعرف اسمه الحقيقي، كما أننا لا نعرف سر هذه الحروب التي تكالبت علينا.

مرة حلمت بجدي عندما كنا ننام في حوش البيت ليالي الصيف القائظة، قال لي كأنه يرتل آيات من الذكر الحكيم: لا تخف يا بني من الأموات الذين هم تحت التراب،

فهم مسالمون جدًا، مصدر الخوف يأتي من الأحياء الذين هم يدبون عليه.. وبعد ذلك المنام لم يستطع أحد من الأولاد الأشقياء أن يسخر مني أو يعيرني بالجبن... انظروا جاء الذي يخاف من قبر جده.. الأيام قد تكون أحيانًا حبلى سفاحًا بأحداث فاجعة يدخرها الزمن اللئيم، الذي يوارب خبثه قبل أن يفاجئ الجميع بما كان يُخبئ من مفاجآت، كالقيح والصديد الذي تفرزه الجروح القبيحة بعد أن تمتلئ بهما، ولا بد أن شمس تموز تنضج طينة الجنوبي قبل غيره فيشب قبل أوانه، وجدت نفسي أقف عند جدار القبر أوقد شمعة لجدي وأقرأ لروحه سورة الفاتحة، هناك أحسست بروح أخرى تقف خلفي، كان ذلك المخلوق الرائع الذي أحببته في صغري قد مات منذ سنوات، عندما كنت مثل السندباد موغلاً بالسفر بعيدًا جدًا عن مدينتي الجنوبية، ولم يخفف شيئًا من حزني عليه سوى رؤية قبره في الركن الشرقي من صحن المسجد دون شاهد يحمل اسمه، قفزت إلى ذاكرتي كل الصور دفعة واحدة، متداخلة ومرتبكة متدافعة من أيام طفولتي وشبابي: عن الأمكنة والناس وموبرد، والنسوة اللواتي نثرن شعورهن ونزعن لحومهن، لعل أبواب السماء تتفتح ولكنها ظلت مغلقة حتى في ليالي القدر المباركة، لم تستجب السماء ولم تتوقف الحرب واستمرت تحصد أرواح أبنائهن، عادت التوابيت تظهر من جديد في المغتسل، يحملها موبرد على ظهره ثم يضعها على الأرض وينزل فيها ضحايا السنوات الأربع الأولى، فقد كان آنذاك حيًا يرزق حتى منتصف عمرها المشئوم.

تذكرت عندما أنشبت الحرب أنيابها وأظفارها في تربة السهل الرسوبي الغضراء اللينة، التي سرعان ما تصلبت صاكة بقسوة الرخام على تلك الأنياب، مانعة إياها من الإفلات من قبضتها، في سنوات الحرب الطويلة مع جارتنا التي تشرق الشمس من وراء جبالها العالية.. جاءنا المتطوعون الأشقاء من مغرب الشمس خلف مضارب الشعر، في الصحراء الممتدة مع الأفق، حُشروا جنوب البوابة الشرقية، خلف خطوط القوات النظامية، على طول الجبهة الممتدة من السهل حتى ثغر البحر، وقد تولى موريد تغسيل الكثير منهم ودفنهم في مقبرة الغرباء في المدينة.

تذكرته أيضًا عندما كان يتخذ تابوتًا يناسب حجمه، ينام فيه في ليالي الشتاء الباردة متدثرًا بأسماله وبمعطف عسكري رث ورثه من جندي غريب، كان الأطفال يرمون التابوت بالحجارة من شبابيك المصلى المقضبة بالحديد بدون زجاج، فيهب في العتمة كالمارد راميًا غطاء التابوت جانبًا، فيلوذون بالفرار ويختفون بسرعة كالفئران في بيوتهم المتلاصقة فلا يتمكن من الإمساك بهم، وإن أمسك بأحدهم فلن يؤذيه أبدًا، وإنما يقوده إلى أهله ليتولوا عقابه، كان يعرف جميع أهل الزقاق الذين أحبوه وعطفوا عليه، يساعدهم في قضاء بعض حاجاتهم أو عند استعارتهم تابوتًا لموتاهم، لم يبخلوا عليه برغم فقرهم بمنحه قليلاً من النقود أو الطعام، والهدوم المستعملة، وفي أمسية جمعة جئت لأوقد شمعة عند جدار القبر وأقرأ سورة الفاتحة فوجدته يصلي، انتظرته متأملاً دون أن أعكر خلوته، حتى فرغ منها فسألته وكأنني أكذب ما رأته عيناي تلك اللحظة: موريد.. هل

كنت تصلي؟ هز رأسه بالإيجاب، فقلت: والله، صلاتك هذه مقبولة أكثر من صلاة الكثير من الناس، كان المسجد بيته الذي يأوي إليه مع الخفافيش التي تسكن سقفه المصنوع من حصران القصب وجذوع شجر القوق الملساء ذات المحيط التام الاستدارة، ومرة هرع إلى النهر عندما سمع بطفلة غرقت فيه، وكانت أمها المسكينة تقف طوال ذلك النهار الصيفي باكية مولولة تثير الحزن في القلوب، تتضرع إلى الله أن لا يأتي المغيب قبل أن تظهر جثتها، خوفًا من أن تجرفها تيارات المياه للأهوار القريبة أو للبحر البعيد، وفجأة بعد أن تمتم بكلمات غير مفهومة ظهرت جثة الطفلة طافية على سطح الماء، فكانت بعض النسوة يأتين إليه بالشموع والبخور من أماكن أخرى في المدينة، يجلبن له الصدقات والنذور، وأخريات يطبعن أكفهنّ الملطخة بالحناء على باب المسجد المهجور، كانت بعض تلك الطبعات طرية خضراء تفوح منها رائحة زكية والأخرى قد جفت ومال لونها للدكنة البنية، وكنّ يتركن أماكن للأكف الصغيرة التي لا تطال الوصول لأعلى الباب، وبعد أن ذاع بين الناس أن صاحب القبر وخادمه كلاهما من أولياء الله، نتيجة حادثة روتها امرأة رجل سكير يقال إنه رمى زجاجة خمر فارغة على القبر فكسرت يده في اليوم التالي، وأن امرأة عاقر قالت إنها شربت ماءً من زير المسجد ونذرت للمدفون فيه دستة شموع وحناء، وشرائط قماش خضراء فحبلت، وبمرور الزمن صار جدي وخادم المسجد وليين من أولياء الله ولهما كرامات لا يستهان بها..

أرشيف مدينة تحتضر

كان سوق المدينة القديم يرجع للحقبة التركية من حيث طرازه التقليدي، عقود سقفه مشيدة من الطابوق والخشب، في أعلى الجدارين المتقابلين نوافذ عالية يتسرب منها ضوء الشمس، تمتد بينهما جسور خشبية تربط جانبي السوق، تتدلى منها مصابيح شحيحة الضوء ومراوح معلقة، مدخله ومخرجه كلاهما في الجانب الشرقي من ضفة النهر، القادم من الكورنيش يستطيع الدخول إليه من الفتحة المطلة على النهر قرب مقهى التجار، أما الآتي من أحشاء المدينة القديمة فيدخله من طرفي سوق العجم وسوق الصفارين، دكاكينه تتقابل بنسق منتظم، يمتد لمسافة حتى يقطعه شارع فرعي، فيشطره إلى نصفين، ينتهي النصف الآخر عند الكورنيش، ومع أنه الجزء الأقصر طولاً من السوق، إلا أنه القلب النابض بالحركة.

كان يقف هناك في وسط السوق، الناس يمرون به في كلا الاتجاهين وهو متسمرًا في مكانه، شيء يحار فيه المرء، يضع نظارة سوداء تحجب عينيه ويحشي منخريه وأذنيه بالقطن، يسد ستة منافذ في رأسه عن الاتصال بالعالم الخارجي، المنفذ الوحيد الباقي: فمه المطبق أيضًا.. شيء يحير العقل الناس ينسجون حوله حكايات بعضها مبالغ فيه،

فهو إما أن يكون مجنونًا خطرًا أو ضحية لقسوة الظروف، البعض يؤكد أنه كان طالبًا يدرس الطب في جامعة بغداد، ثم فشل لتعلقه بفتاة كان يعشقها ولكنها تزوجت غيره، أو أنه من ضحايا حرب الثمان سنوات، وأن مآسيها أفقدته صوابه، ومنهم من يذهب بعيدًا فيقول إنه جاسوس يعمل لصالح دولة أجنبية، وهكذا كثرت حوله الأقاويل واختلطت التأويلات، ولا أحد يعرف الحقيقة وصار الناس يتجنبونه دون أن يكون لذلك أيما تأثير عليه، فقد بنى بينه وبينهم جدارًا غدا من المستحيل إزالته، كنت مع بعض الأصدقاء نهتم باكتشاف أمره، وكنت أفكر بطريقة ما أستطيع من خلالها الاقتراب منه شيئًا فشيئًا دون إثارة مخاوفه وشكوكه، فكنت إذا مررت قريبًا منه أحاول لفت انتباهه، وأحيانا أسلم عليه دون أن أتوقع الرد، حاولت ذلك مرارًا دون يأس، وخيل إليّ أنني سمعته يرد تحيتي بصوت خافت ولكنني لم أكن متيقنًا من ذلك، وحرصت أن يكون ظهوري أمامه طبيعيًا، وبين أوقات متباعدة نسبيًا، وكنت أتمنى أن يكون من المدخنين لتكون السيجارة وسيلة التعارف بيننا، ولكنه على غير ما اعتاد عليه المجانين من ولع بها لم يره أحد يدخن ولا لمرة واحدة، أخيرًا قررنا أن نستدرجه بطريقة فجة أشبه بالاختطاف إلى بيت أحدنا عندما يكون خاليًا، وبدأنا برسم الخطة، وفي كل مرة نجري عليها شيئًا من التعديلات حتى نضجت الفكرة واستقر رأينا على أن نعزمه على طعام، كما حدث لراسبوتين، ونسقيه شيئًا من الخمرة، كانت الفكرة في

الحقيقة في منتهى السذاجة ومن وحي رواية راسبوتين، جعلتنا نتمسك بها لفترة، وبعد التحري والسؤال عرفنا أنه يثق ببائع حلوى في السوق وقد اتخذه صديقاً وحيداً له، وأنه يؤدي له خدمات إيصال الحلوى لزبائن معينين، واتفقنا مع الحلواني أن يبعث لنا حلوى معه، وأعطيناه عنوان البيت، فقال إنه سيأتي حاملاً لكم الحلويات مساء غد بعد صلاة المغرب.

وفي الموعد طرق الباب فقمت لأفتحه، وكنا الثلاثة في البيت في حالة توتر وقلق، فتحت الباب فمد يده ليسلمني الحلوى ولكنني لم أتناولها وقلت له بهدوء:

- تفضل..

دخل وسرت خلفه حذرًا، وعندما اجتزنا الممر إلى باحة البيت شاهد الصديقين جالسين، ولم يبدو عليه شيء من الاستغراب لرؤيتهما، قلت:

- من فضلك ضع الحلويات على الطاولة وتفضل اجلس.. أحب أن أتكلم معك..

قال بصوت مشبع بالحزن: لا.. يجب أن أذهب..

وتذكرت أن الحلواني أعطانا كلمة السر، وهي أن نتوسل إليه بروح أمه إذا أردنا أن نتحدث معه فسارعت متوسلاً بكلمات تفيض حبًا:

- أتوسل إليك بروح أمك أن تجلس معنا قليلاً.

تمانع، فقلت له:

- حلفتك بروح أمك..

وكأن هذه الكلمات كانت المفتاح السحري لهذا المخلوق

الغريب.. سألته: ما اسمك؟

- زرزور..

- اسم جميل ونادر هذه الأيام.

وسألني عن اسمي فأخبرته، وبسرعة أردفت قائلاً قبل أن يغير رأيه ويخرج:

- اجلس معنا.. لا تخف يا زرزور نحن أصدقاؤك؟

- أنا لست خائفًا وأنتم لستم أصدقائي وأنا لا أعرفكم..

- نحن نعرفك ونعتبرك صديقًا لنا، فهل تقبل صداقتنا؟

قلت ذلك وأنا أبتسم له.

قال بمنطق المحاور الذكي:

- أقبلها إن لم تكن مفروضة عليّ..

- نحن لا نريد أن نفرض عليك شيئًا، والصداقة لا تفرض على أحد بالقوة أبدًا. كررت عليه ترحيبي به بالجلوس فجلس لوحده على أريكة قبالتنا، وأزاح عن رأسه الزمبيل الكبير، فبدا وجهه شاحبًا جدًا وشعره شائبًا رغم أنه لم يتجاوز الثلاثين بعد.

- الوقت الآن ليلاً فلماذا لا تنزع نظارتك، وبمجرد أن سمع ذلك، نزع نظارته وأزال القطن من أنفه وأذنيه..

وقال:

- هل تريدون شيئًا آخر؟

- نحن لا نريد شيئًا سوى الكلام معك..

قدمت له شيئًا من الحلوى فامتنع.. وقال بهدوء: تفضل اسأل..

- هل صحيح عندك موسى تهاجم بها من يزعجك؟

رد بسرعة وبشيء من التحدي: تعال فتشني لتتأكد بنفسك.

تحيرت ماذا أقول لقد سمعت قصصًا عن عنفه واستعماله للموسى في تشويه وجوه المتطفلين، فقلت في نفسي إن قمت من مكاني ربما يهاجمني ولا أستطيع الدفاع عن نفسي.

فقلت:

- لا داعي لتفتيشك نحن أصدقاء ونريد أن نعرف منك الحقيقة.

فقال بنفس المنطق الذي أجاب به على أسئلتي:

- هل تصدقونني لو قلت لكم ليس عندي موسى..

- نعم نصدقك.. لماذا لا نصدقك.

قال وشاهدت شبح ابتسامة ترف على شفتيه:

- وإن قلت لكم عندي..

قلت له: سنصدقك أيضًا.. وهنا أسرع بالجواب كأنه يريد أن ينهي الحديث ويعلن انتصاره علينا:

- إذن ما الفرق فالأحسن لك أن تفتشني لتعرف الحقيقة.

تحيرت بماذا أجيبه

قلت منهزمًا أمامه:

- لننسى موضوع الموسى، ولكن قل لي لماذا تسد أنفك وأذنيك بالقطن وتحجب عينيك بنظارة سوداء؟

قال كأنه يقص علينا حكاية يسردها لأول مرة:

- ألم تسمع بالقرود الثلاثة؟

أدهشني ذكره لتلك القرود، وقلت في نفسي من أين يعرف بقصتهم! وكنت كلما رأيته في السوق طاف بخاطري منظر القرود اليابانية الثلاثة المنحوتة على أفريز حجري في معبد ياباني في نيكو، يرجع تاريخها للقرن السابع عشر الميلادي، شاهدتهم في كتاب يشرح مصدر الحكاية والمغزى منها، وربما كانت ترمز لعقيدة دينية تؤمن أن تجنب الشر في صوره الثلاثة التي تشترك فيها حاستي البصر والسمع مع النطق هي من الأمور الأولية في هذه العقيدة، حاولت اختباره في مدى معرفته بهذه الحكاية. فقلت:

- نعم سمعت بهم.. ثلاث قردة حكماء وهم في الحقيقة توضيح بصري لتبرير الانسحاب من المعركة الدائرة بين الخير والشر وعدم التورط في المشاكل ونشدان العافية والسلامة، عندما تقتضي الظروف الحفاظ على الحياة.. فهم كانوا كمن يريد أن يقول: لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم!

- لا.. ليس صحيحًا، بل هم عكس ما تقول، هم قالوا بهذه الرمزية الظاهرة في حركة الأيدي: الأول أنا لا أرى شرًّا وغطى عينيه بيديه، والثاني أنا لا أتكلم شرًّا وغطى فمه بيديه، والثالث أنا لا أسمع شرًّا وغطى أذنيه بكلتا يديه، وأنا هم جميعًا، الفرق أنهم كانوا ثلاثة وأنا اختصرت الثلاثة في شخص واحد فقط..

- القرود الثلاثة لم يسد أحد منهم أنفه!

وتجاهل الإجابة ورد بسرعة كأنما أراد إكمال توضيحه السابق بعبارة ذات أهمية لحسم الجدل الدائر بيننا حولهم.

- وقرد آخر هو رابعهم نسيته..

- من يكون هذا القرد الرابع..؟

- لا أفعل الشر. وربما هو رئيسهم..

- ولكنه غير موجود معهم وربما هو من وحي خيالك..

قلت ذلك بنبرة جادة وأنا أنظر إلى عينيه مباشرةً لكي ألاحظ ردة الفعل عنده..

- هو غير موجود فعلاً، لأنه شيء بدهي وبدونه لا معنى أصلاً للحكمة وبه استعادت الحكمة وضعها الصحيح، فاستقبحت الشر في ثلاثة أفعال: لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم.. والرابع هو أهمهم جميعًا: فعل الشر

- هذا صحيح تمامًا..

- ولكنك لم تجب على سؤالي، لماذا تغلق أنفك؟

- لأنهم لم يقصفوا بأسلحة كيميائية..

- من..؟

- القردة..

- أي أسلحة كيميائية..؟

- هل نسيتم الغازات السامة؟

- أين هي هذه الغازات السامة؟ لا توجد غازات سامة يا زرزور..

- توجد وقد تكلموا عنها كثيرًا في الحرب وقبلها وبعدها..

- صحيح توجد ولكن في الحروب فقط.. والآن انتهت الحرب منذ سنوات..

- ألم يقصفونا بها؟

وتذكرت أن قصفًا حقيقيًا حدث في الشمال، وآخر وهميًا حدث في الجنوب، بمادة بيضاء اتضح لنا أنها مجرد دقيق الحنطة، لبث الفزع في نفوس المنتفضين ولكنني لم أستعمل كلمة منتفضين خوفًا من أن يكون فعلاً مخبرًا للحكومة فقلت:

- تقصد المادة البيضاء الشبيهة بدقيق الحنطة التي قصفونا بها عندما عم التمرد مدن الجنوب في آذار.. نظر إليّ نظرة ذات معنى أراد أن يقول فيها شيئًا ما، فكانت أبلغ من الكلمات، فهمت الآن أنه يرى ويسمع ويتكلم، وأنه بهذا التمثيل البصري الذي يعلنه على الجميع، يريدنا أن ندرك من خلاله أننا نحن الذين لا نرى ولا نسمع ولا نتكلم، وإذن فنحن شركاء في الشر، أما لماذا يسد منخاريه، فأغلب الظن أنه يكره أن يشم رائحتنا، فهي ربما تثير في نفسه الاشمئزاز والغثيان، نحن ننسى بسهولة وسرعة وهذا ربما يعتبره غباء، أما هو فمختلف عنا تمامًا فهو أرشيف المدينة التي تحتضر..

وقبل أن يخرج سد منافذ رأسه الستة وغطى رأسه بالزنبيل ذي العروتين المصنوع من سعف النخيل، وغادر البيت بهدوء المنتصر، ومنذ ذلك الوقت عرفت لماذا كان الناس يتجنبونه دون عناء لفك ألغازه..

عن القاف والهاء

١

توقفت حافلتنا بعد اجتيازنا الحدود، وكان طابور من الحافلات العسكرية قد توقف أيضًا عن الحركة، كنت أشعر بكآبة تجثم على صدري، وكنت متضايقًا منذ أن تحركت تلك الحافلات صباحًا وغادرت معسكر الأسرى، ولكنني فرحت لرفاقي عندما نزلوا من الحافلة وقبلوا تراب الوطن، وبعضهم أخذ حفنة منه ودسها في ثيابه، خنقتني العبرات وشعرت بغصة وأجهشت باكيًا، ولكنني لم أجرؤ على النزول وكذلك فعل صديقي المندائي[1] الذي كان يجلس جنبي.. يا إلهي كم ارتوت هذه الأرض من الدماء وأي فرق بين هذا التراب والآخر الذي اجتزناه منذ قليل، ألم نجبل منه ثم نعجن بالدموع، ومع ذلك فإن هذا التراب يقتل بعضه بعضًا! فأيهما القاتل والمقتول؟ أهو هابيل أم قابيل؟ أم كلاهما، ولكن مهلاً.. كلما اختلط عليَّ الأمر، تذكرت أن أميزهما وأفرق بينهما بالقاف، فالقاف قتل الهاء، قابيل هو القاتل.. وبحرف القاف فتحت أول صفحة في سفر الدم:

---

(1) المندائي: نسبة إلى المندائيين وهم أصحاب ديانة قديمة، استوطنوا ضفاف الأنهار في العراق الجنوبي ولا يزالوا جزء من مكونات الشعب العراقي.

قتل، قنابل، قوة، قسوة، قصف، قذيفة.. ولكنهما يتبادلان الأدوار باستمرار: فالهاء قد تنقلب قافًا من يدري! لا أدري بالضبط أين كنت حينما أسرت وأنا جريح، وأي تراب تشبع بدمي، أشياء كثيرة تتداخل في رأسي، كنت قبل الحرب أفكر بالهروب من الوطن واللجوء لأي دولة في هذا العالم، الواسع على من هم مثلي الذين لم يخطوّ بعيدًا عن مسقط رأسهم خطوة واحدة، والآن بعد سنوات الأسر عليَّ أن أعود إليه. كنت في البدء أعتقد بأن الهروب هو ملاذي الوحيد..

- الحدود لا تزال مفتوحة وسأتمكن من اللجوء إلى دولة مجاورة قبل استدعائي للجيش..

- وتضيع مستقبلك يا ولدي..

- أي مستقبل يا أمي والحرب فتحت أبواب الجحيم علينا..

- مستقبلك ياحبيبي أن تكون طبيبًا بعد أن نجحت وتخرجت هذه السنة..

- سيستدعونني للجيش حتمًا قبل أن..

وسكت قبل أن أكمل جملتي، لأن أمي كانت تطارد أحلامها خشية أن تهرب أو تتسرب من بين أصابعها ولا تستطيع اللحاق بها... أيتها الحرب توقفي فأمي تريد أن تداعب أحلامها وتهامسها، تبادلها الأماني، تمهلي أيتها الحرب أمامك وقت كاف لتمارسي دورك الذي خطه القدر علينا منذ الأزل.

- وهل يرضيك أن يضيع حلمي الذي عشت له كل حياتي.

- أي حلم يا أمي.. الأحلام تتجدد دائمًا، نحن الذين نصنعها،

ثم تأتي الحرب فتحطمها كالخزف أمام أعيننا..

العصافير تحلم دائمًا بالحبوب فهل نلومها ونعتها بالغباء لأنها دخلت الأفخاخ بأرجلها، أم نلوم الأفخاخ لأنها أغرتها، أم الصياد وحده لأنه نصب الفخاخ وموهها، أم الثلاثة معًا لأنهم شركاء فيها.. في الحرب تقتل البراءة ويموت الشعر والحب، يلبس الحب قناع الموت.. والطفولة والبراءة تمسخان إلى وحوش وشياطين، ووحدها تبقى السماء بعيده متعففة تنأى بنفسها عما يحدث تحتها من أهوال وفظاعات، لكنها مشفقة عند سماعها أنين الجرحى وعذابات الجنود في الجبهات آه، يا إلهي كم مرة ضاعت استغاثتي بك أدراج الرياح مع دوي الانفجارات، ولكنني أعلم أنك سمعتها وأعرف أيضًا أنه ما كان لي أن أسأل لماذا لم تستجب لي، كنت كل يوم أدعوك أن توقف الحرب، وبعد انتهائها علمت عقم سؤالي وإلحاحي وجهلي، أولاً: لأننا لا نقترب منك إلا عند الخطر وبعدها ننساك، كما لو كنا أطفالاً نلهو بدمية ثم نرميها بعد أن نمل اللعب بها فننصرف لشيء آخر، وثانيًا: لأنك تستطيع إيقافها، إذا كنا نحن فعلاً صادقين في طلبنا، إننا نتذرع بالرغبة بإيقافها لكي تستمر، كمن يقول: أنا أعرف أن هذا يضرني ولكني سأفعله، ألم تنهنا عن أشياء كثيرة، ومع ذلك نفعلها، نتجاهل أو نتعامى، نتملص ونهرب لنكون خارج دائرة التحريم، نعتقد أنك كالصياد ترمي شباكك علينا، ونحن نسعى كالسمكة للإفلات من بين فتحاتها، ونبرر ذلك بالجهل، نلف وندور على أنفسنا لنقلب الحقائق، ونسوغ ما ليس بمسوغ، وهكذا دأبنا منذ أبونا آدم.

٢

جذوة الحرب لم تنطفئ بعد، فقد أشعل آذار بعد سنتين من توقفها نيران حرائق جديدة لم تستطع أمطاره وزوابعه إخمادها، سمعت أن صديقي المنذائي قد قاتل في صفوف الجنود الثائرين بعد الهزيمة في أم المعارك في الحادي والتسعين من القرن الماضي، وعندما سحقوهم بقسوة رمى سلاحه واتجه للصحراء، وفي البيت وجدت أمي تعتني ببلبل جميل من بساتين أبي الخصيب التي احترقت، سجنته أمي في قفص وقالت اشتريته لذكراك ولكنني أطلقته بعد عودتي للبيت، كان المسكين قد امتنع عن نقر الحبوب وشرب الماء، كان يلوي رقبته وينظر عبر قضبان القفص إلى ترع وسواقي جيكور وجداولها، إلى بساتين أبي الخصيب وشط العرب، يتحسر على الظلال والأفياء تحت عروش النخيل والرطب يتألق كالنجوم الزاهرة في شماريخها وعذوقها، يحن للحظة سكرى برحيق التين والتوت الأسود، فخفت عليه أن ينتحر، فحملته رسالة مواساة لجدائل النخيل المحترقة وأقسمت عليه أن يسلم لي على السياب[1] عندما يحلق فوق منزله في جيكور ويغني له: (مطر.. مطر يا حلبي عبر بنات الجلبي، مطر.. مطر يا شاشا عبر بنات الباشا..)،

---

(1) شاعر عراقي بصري من رواد الشعر الحديث، ولد في البصرة في جيكور بين بساتين شط العرب المشهور بغابات النخيل.

وفي معسكر الأسرى سمعت أن لتلك الحرب اسمًا آخر، غير اسمها الرسمي الذي استعير لها من جيوب التاريخ السرية، بل إنها تختفي تحت أسماء كثيرة، أسماء مموهة بحب الوطن كما يموه الذهب بالنحاس، لكن أيًّا منها لا تقارب ذلك الحماس الفطري المرتبط بعشق الوطن والدفاع عنه، وبحب الأرض والعرض، لأنها منذ الوهلة الأولى ارتبطت باسمه فصارت حربه المقدسة، قادسيته، ثم حرب الأمة: عربها ومسلميها، ولكنها أما زالت حربه التي أشعل نارها بقامات نخيل شط العرب ليرى ظلالها تتراقص ليلاً على ضفتيه، كما أشعل باني بغداد النار في بذور القطن، ليرى مخطط حاضرة مملكته المؤملة تشتعل أمام عينيه ، كما اشتعلت بعد ذلك محترقة بمشاعل هولاكو.

٣

ارتفع عويل النساء العراقيات منه دون أن يجرأن على ذكر اسمه، اسمه تابو الحرب وبذكره تفسد، ويبطل سحرها، وبدلاً من النواح على أبنائهن المقتولين، صرن يبكين منه بحرقة، أن تبكي من الحرب شيء، وعلى ضحاياها شيء آخر، كأن لا صلة تجمع بين الاثنين.. وكنت في كل إجازة أرى لافتات سود جديدة تنعي الذين سقطوا في آخر معركة، كنت أقضي إجازتي أنتقل من سرادق مأتم لآخر مقام في عرض الزقاق أمام البيوت، صارت القهوة

المرة وسماع تلاوة القرآن جزءًا من الحياة اليومية، أخبرتني أمي قبل أن أنزل حقيبتي من يدي، وقد خنقتها الدموع:

صديقك أحمد استشهد وقبل أسبوع خُتم مجلس الفاتحة على روحه، رميت الحقيبة، وهرعت لمنزله.. وتترافق الإجازات مع أخبار من سقطوا من أصدقاء وأقارب حتى انقطعت بعد آخر إجازة قبل الأسر ولم أعد أسمع عنهم شيئًا، ومر وقت طويل كأن الحرب لملمت أطرافها ورحلت..

والآن أتذكر صديقي المندائي وبين أصابعي رسالته الأولى وقد غامت حروفها أمام عيني فلم أستطع قراءة حرف واحد أول وهلة، كنت قد استقر بي المقام منذ سنة في أستراليا لاجئًا بعد أن قذفنا المحيط كأشنات وطحالب بحرية وقواقع فارغة على سواحل هذه القارة النائية، أشفق علينا البحر حينما كنا نطفو فوقه على قارب صيد أوشك على الغرق، تذكرته يومًا.. سألني وكان في موقع خلفي يعالج من جرح في رأسه، كانت الضمادة تبدو كعمامة بيضاء صغيرة، قلت له ممازحًا وأنا أعرفه منذ وقت طويل، فهو ابن مدينتي الجنوبية الغافية بين أحضان ثلاثة أنهار، أيها الجندي المندائي، لا أدري كيف أخاطبك: هل أنت جندي جريح، أم شيخ مندائي، وفي معسكرات الأسر، بعد إعلان بعض الأسرى ندمهم فسيقوا لمقاتلة رفاقهم في السلاح، ولما رفضت أن أزج في مقاتلة رفاقي وأعلنت أنني لن أحارب بعد الآن أبدًا، وأنني بريئ من كل حروب العالم وممن كانوا سببًا لها، أبقوني في السجن حتى النهايه ونقلوه إلى سجن آخر بعدما أبدى شجاعة بالرفض رغم أنه كان كالقصبة الصفراء اليابسة سهلة الرض والكسر..

٤

تذكرته وهو لا يزال راقدًا للعلاج في مشفى الوحدة الصحية التي كنت طبيبها المسئول، قال لي يومًا قبل أن يذهب في إجازة لأهله: أتدري أيها الطبيب، لقد خطرت ببالي فكرة لإنهاء الحرب... وكانت في سنتها الثالثة أشد سنواتها ضراوة وعنفوانًا، قلت ضاحكًا وما هي؟، كان كلما جاءته فكرة عبقرية يثب عاليًا كرجال الماساي الفوارع، كأنه يوائم بين القفز وفرادة الفكرة، قال: ألم تسمعهم عندما ينهون صلاة الظهر يرفعون صوت المكبر بـ (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، تذكرت أننا نسمع نقل صلاتهم بالميكرفون عندما تتقارب خطوط الجبهة حتى أن كلامهم يصبح مسموعًا في الأيام الهادئة التي يتوقف فيها القصف المتبادل وتبدو الجبهة في حالة استرخاء وهدوء، قلت: نعم، يحدث ذلك كثيرًا، حتى أنني سمعت إحياءهم لمراسيم شهر محرم ويوم العاشر منه، وأضفت مستغربًا: وما الجديد في ذلك! قال بثقة وإيمان: نرد عليهم سلامهم فنقول (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته)، بدلاً من السباب والشتائم التي أحيانًا نتبادلها وإياهم... قلت له بسخرية واضحة: أيها المجنون، وهل تتوقع أن الحرب ستتوقف بمجرد الرد على سلامهم، قال بثقة لم يغادرها لحظة واحدة: نعم ستتوقف اليوم أو غدًا ستتوقف حتمًا، ولكن الأفضل أن تتوقف بهذه الطريقة التي لا تكلفنا شيئًا.

٥

يا إلهي هذا المندائي الطيب يفكر بالسلام الصعب، بينما الأشرار كل يوم وفي أنحاء مختلفة من العالم، يكومون نفايات كبيرة من الأحقاد والضغائن، المتحجرة في عقولهم منذ إنسان الغاب ورجل الكهوف ثم ينظرون إليها بعيون نهمة كعيون الذباب، ليصنعوا في النهاية زبالة هائلة بحجم مدينة كبيرة كمدينة نيويورك مثلاً، أما تولستوي العظيم فيكتب روايته الحرب والسلام، من شعاع يقتبسه من قمر روسيا القيصرية، يضيء بنوره مقاطعة بولينا ياسانيا والعالم بأسره، إلى متى يظل هؤلاء الأشرار يخنقوننا بقذاراتهم..! كانت رواية تولستوي قد رافقتني طوال سنوات دراستي للطب، بل كانت تفوق في أهميتها الكتب المقررة، كنت أهرب بها من التشريح والأمراض والمصطلحات الصعبة إلى عالم تولستوي ورؤاه وآفاقه الإنسانية الرحبة.. وهي رفيقتي عند السفر في الإجازات، كان بعض زملائي في الدراسة يحبون مشاهدة قصص الحرب في السينما، يجدون في مشاهد الحرب الأمريكية الملفقة متعتهم كأنها تمتص ما يتراكم في عقولهم من رغبات مكبوتة، وأفعال مقيدة أو مصادرة، كانوا يقولون: أنت تقرأ الحرب والسلام ونحن نشاهدها، كان ذلك قد حدث قبل أن تنشب الحرب بيننا وبين الجارة القريبة التي نلتصق بها من الخاصرة حتى أعلاها

شمالاً وأسفلها جنوبًا، كما تلتصق التوائم السيامية ببعضها، تذكرت يوم استدعاني ضابط الأمن في الوحدة، وسألني عن الكتاب، وربما اعتقد أنه كتابًا في الطب لأنه مكتوبًا بالأنكليزية، قلت: إنه رواية عن الحرب والسلام وسألني: عن اسم المؤلف فذكرته له وقلت إنه كاتب روسي، فسأل: أهو شيوعي؟، فأجبته: لا لم يكن شيوعيًا، كان كاتبًا إنسانيًا مات قبل قيام الدولة الشيوعية في روسيا، ثم سألني سؤالاً غريبًا اعتبرته فلسفيًا، نادرًا ما يسأله هؤلاء الناس قال: ولماذا زاوج صاحبك هذا بين الحرب والسلام، لماذا لم يكن كتابه عن أحدهما مثلاً لماذا الاثنان معًا، قلت: لأنهما لابد أن يكونا معًا، ويتعايشا معًا وفي النهاية ينفصلان لفترة لتأتي فرصة أخرى ليتصلا من جديد.. وربما كان السلام الذي فكر به تولستوي أو صاحبي المندائي لم يخطر ببال ضابط الأمن.

كان صديقي المندائي الذي توقد ذهنه بتلك الفكرة العجيبة هو ابن الجنوب وسليل المياه والقصب، كان يجلس بجانبي في الحافلة في تلك اللحظة التي لم أنساها أبدًا..

قال: هل أسرك شيئًا أيها الطبيب، قلت: تكلم فنحن لم نصل بعد إلى مركز تسلم الأسرى المحررين.. قال:

- لقد اعتدوا عليَّ في المعسكر..

- كيف.. من اعتدى عليك.. الإيرانيون؟

- رفاقي يا دكتور، حاولوا إكراهي بالقوة على الاختتان لولا تدخل حراس المعسكر..

لم أستطع أن أقول شيئًا، كان في يدي المصحف الشريف الذي أُهدي إلينا قبل مغادرتنا المعسكر، فتحته وتشاغلت عنه بالنظر لحروفه المنمقة الجميلة.. وتذكرت كيف أنهم نبذوني لأني رفضت أن أقاتل أبناء جلدتي وأبعدوني إلى معسكر اعتقال آخر بعيدًا عنه، وبعد فترة صمت مخجلة سألته:

- ماذا تظنهم سيهدوننا عندما نصل إلى مركز استلام الأسرى المحررين؟

- وهل تعتقد أنهم سيقدمون لنا باقات الزهور!

- لا أدري..

- صورهُ.. صورهُ.. يا دكتور!

كررها مرتين بشفتين مرتجفتين كأنهما أنتين عميقتين خرجتا من أعماق روحه الملتهبة..

كانت كلماته في الرسالة تصرخ بين السطور مستغيثة هذه المرة من رفاقه اللاجئين في معسكر لجوء صحراوي على حدود الوطن، وكانت الرسالة تحمل شعار الصليب الأحمر..خاطبت نفسي معترفًا بهزيمتي مع شيء من التبرير المقبول نوعًا ما: أنا التجأت حتى لا أنكث بعهدي وقسمي (الهيبوقراطي)، وأتحول لسكين تصلم الآذان وتوسم الجباه، وتبتر الأكف، وهو كذلك هرب بحلمه الذي أراد أن لا يشوهه أحد...

عشرة نجوم بلون الدخان

ألهبت رأسه نيران تموز، فانتبه فوجد نفسه مقرفصًا حافيًا، وسط حقل كبير مزروع بشظايا قنان زجاجية؛ تبرق ألسنتها المرهفة كالمدي والأنياب تحت أشعة شمس الظهيرة، على امتداد البصر لا شيء سواها ينبئ بنأمة حياة.

لا شيء الا هذه الانعكاسات الضوئية الحادة التي تصدر منها بألوانها وأشكالها المختلفة، وهي تحيط به كحلقة محكمة، كانت الشمس في السمت والظل لم يستطيل بعد والاتجاهات حتى هذه اللحظة غير محددة، حاور نفسه بهدوء ولكن الشمس كانت تسخر منه وترد عليه مستفزة ومستهزأة بما يفكر به:

- عليّ أن أنتظر حتى تميلي قليلاً للزوال.

- لا تستعجل الأمر سأرسل عليك شواظًا من ناري قبل أن أجنح للزوال.

- لن تُرهبيني سأطفئُ نارك في أقرب نهر يصادفني في طريقي إلى البيت.

- هذا إذا بقى منك شيء تطفؤه.

كان يفكر بطريقة يفتح فيها طريقًا لموطئ قدم، خلع قميصه ولفه على كفيه وبدأ بإزاحة الشظايا واحدة واحدة ورميها على الجانبين، وهكذا فكل سنتمترات قليلة ينظفها

تصبح مكانًا لقدمه الأيمن وستتمترات أخرى للقدم الأخرى.

- كنت هكذا أفعل عندما تعلمت ركوب الدراجة، الرصيف كان لي أرض الأمان. حمدًا لله فأنا الذي أزحف باتجاه آخر، ماذا لو كان العكس!، سأصلي لك أيتها الشمس لو انتصرت عليّ.

مالت الشمس قليلاً، فعرف أين يتجه، وأخذ يزحف ببطء ولكن بثبات، وتمزق نسيج القميص وصار خيوطًا، وتجرحت ركبتيه وأصابع قدميه وأصابع كفيه ورسغيه، وغطت الجروح أيضًا ساعديه حتى المرفقين، وكانت عيناه تؤلمانه وتدمعان من شدة الوهج، أحيانًا كان يريد أن يتوقف وهو في ذروة انهماكه بعمله، ويجلس ويفكر بهدوء:

- ما الذي أعمله، هل أنا مجنون، لا يمكن أن أكون في كامل وعيي، ويستحيل أن يكون هذا الذي أراه شيئًا حقيقيًّا، لا بد أني أحلم، أو ربما أنا بطريقة أو بأخرى في عالم آخر!

- بدأت تهذي أيها المسكين، هل أوجعتك ضرباتي؟، مهلا .. هذه هي الضربة الأولى، وسأطيح بك في الضربة القاضية عندما يحين موعدها، ها.هه.

كانت الانعكاسات الضوئية آخذة بالاضمحلال عندما أحس بالتعب ينهب جسده وآلام شديدة توجع ظهره ورجليه، ولكنه واصل شق طريقه غير مكترث لكل هذه الآلام، وأفلت شمس ذلك اليوم وهو لم يقطع إلا مسافة ضئيلة، وجاء الليل بنسماته الباردة، ولكنه قبيل هبوط الظلام أعد لنفسه مكانًا كافيًا لمد رجليه والنوم مقرفصًا، وكان القمر

يعكس ضوءه الناعم على الشظايا فيشعل مهرجانًا من الألوان الدافئة في الزجاج.

- أريد أن أحلم هذه الليلة أني ملك وهذه مملكتي، هل في هذا العالم المهووس باختراعاته وثرواته وقوته مملكة أجمل وأهدأ من مملكتي هذه!

- مملكتك هذه أجمل ممالك الدنيا لأن أحدًا لا ينازعك عليها.

كانت النجوم توشوش له بهذه الكلمات وتكررها مرارًا حتى نام، ولما أشرقت عليه الشمس ثانية، خلع ما تبقى من ملابسه واستمر يشق طريقه بعناد، كان هذا الصباح الصيفي لا يختلف عن صباحات بلاده الدافئة، لا أنه أحس بنسمات عليلة تهب من الغرب فيها شيء من برودة الأنهار، وتراءى له أنه يرى من بعيد بعض شجيرات الصفصاف التي تحجب عنه رؤية النهر، فأراد أن يكرر تجربة أوتابشتم السومري عندما أرسل حمامة فعادت إليه بغصن رطيب أخضر، فكر ماذا سيرسل:

- لو كانت معي جزمتي العسكرية لرميتها بهذا الاتجاه، لا، لا، قعر زجاجة كهذه سيؤدي الغرض.

التقط واحدة كأنها لسان طويل مندلق، ووقف منتصبًا واتخذ وضعًا رياضيًا وقذفها بكل قوته، طارت الشظية أمام عينيه وخطف بريقها لحظة تحت ضوء الشمس، وسقطت ولم يسمع لها صوت انكسار ولم تتناثر إلى شظايا صغيرة، هتف بأعلى صوته، اليابسة، اليابسة.. كأنه يقف على قيدوم سفينة شراعية تبحر نحو شاطئ قريب.. ونسي ما أمامه من

شظايا وركض بكل قوته حتى وصل إلى الشجيرات، جلس على الأرض المرتفعة قليلاً ونظر إلى قدمية المدماتين، وإلى النهر الذي لمعت صفحته كمرآة أمام عينيه، وكانت مويجاته تتلألأ تحت شمس الظهيرة، وتبرق بانعكاسات أخاذة بآلاف الشموس الصغيرة المترجرجة في حركتها الموجية الرائعة. التفت وراءه إلى الحقل الزجاجي بنظرة مسالمة، ثم رفع بصره إلى الشمس وهز قبضته بوجهها وصرخ كالمجنون:

- ها قد انتصرت عليك أيتها المغرورة، ورمى نفسه في النهر، فسمع صوت: وش... وش... كأن قضيبًا حديديًا متوهجًا أخرجه الحداد للتو من الفرن ودسه في الماء، وش.. وش.. أش أخذت تطن في أذنيه.

انعشت برودة الماء جسده الملتهب وغسلت جراحه، عب منه فارتوى وشعر بأن الإعياء والعطش قد زايله لمجرد ما لامس جسده الماء، فأخذ يحرك رجليه ويديه يطبطب بقدميه، لاعبًا لاهيًا كما لو أنه طفل يدخل الماء لأول مرة، وتذكر أن شيخًا قال له يومًا: إن الخارجين من النار يرمون في نهر من حليب في الجنة، يعيد جلودهم المتفحمة بيضاء ناصعة.

كان جذلاً منتشيًا إلى درجة أنه لم يسمع الرجل الذي كان يناديه ويأمره بالخروج فورًا. صاح به الرجل مهددًا:

- هيه.. هيه.. أخرج وإلا أطلقت عليك النار.

كان يريد أن يقول للرجل الواقف عند الشاطئ إنه عار، ولكنه نسي ذلك وخرج، وكان قرص التعريف المعدني يتدلى من رقبته يقطر ماءً على صدره، وأدهشه أن الرجل لم

ينتبه لعريه وكان ودودًا جدًا معه، حتى أنه أعطاه جلبابًا وسروالين أبيضين ارتداهما على الفور وودعه، وسار على شاطئ النهر لكنه وجد نفسه يحلق عاليًا حين امتلأ الجلباب بالهواء وصار كالبالون يحمله كريشة فوق ضفتي النهر الكبير، وكان سرب من النوارس تطير صاخبة في خط أفقي مستقيم باتجاه البحر، وشاهد صيادين بملابسهم العسكرية يرمون شباكهم في النهر ويدخنون سجائرهم الرخيصة بانتظار أسماك الصبور الفضية، كانوا قد هجروا الجبهة من أجل هذا الموسم كل سنة، لوح لهم، ثم حلق فوق غابات نخيل كأنها أعمدة في خرائب معبد روماني أو أوتاد محروقة، لا تحمل سعفًا فوق رؤوسها المقطوعة سوى بعض سعيفات كأنها جراد مشوي بالنار، تتبادلان على جانبي الضفتين همسًا لا يفهمه إلا النهر والنوارس التي تطير نحو البحر.

هبط إلى الضفة الأخرى وكان الصيادون - الجنود قد سحبوا شباكهم المليئة بالصبور التي كانت حراشفها الصدفية تلمع كالفضة تحت الشمس. الصيادون - الجنود لم يهربوا من جبهة مشتعلة ليختبئوا في بيوتهم، وإنما هجروا الحرب ليذهبوا إلى موسم الصيد الذي يحبون أن لا يفوتهم.

كانت مفرزة عسكرية تبحث عن الهاربين ألقت القبض عليه حالما حط على الضفة الأخرى، حيث الصيادون - الجنود لايزالون يخرجون الأسماك التي ملأت شباكهم، والشمس قد مالت وانحدرت من حدبة قوسها الكبير نحو الغرب، حشروه في شاحنة عسكرية من نوع زيل روسية مع أعداد من الفارين من مملكة الحرب، شعر بمعنى

الاحتكاك مع رفاقه في السلاح.

- نحن الآن كتلة واحدة لنا شكل ولنا قوة وحتى رائحة خاصة، ولكننا نفتقد للإرادة، لو فكرنا كرجل واحد ما كنا نساق كالأغنام للمسلخ.

سأله الرجل الذي بجانبه إن كان يحمل سجائر، آه من السجائر، هم آخر يجثم على الصدور، كانت الشاحنة تؤرجحهم وتهدهدهم فسقطوا من شدة التعب في أحضان النوم ولم ينتبهوا حتى توقف محرك الشاحنة عن هديره العالي. أنزلوهم من الزيل وكان الليل قد بدأ يمارس لعبته في إخفاء قبح الأشياء، أوقفوهم في صف واحد وظهورهم إلى حائط في مواجهة فرقة الإعدام، وساد المكان صمت لا يعكره شيء سوى خطوات الضابط المتعجرف في مشيته العسكرية الاستعراضية.

ومع حلول الليل وزعت السجائر على الموقوفين ثم قيدت أيديهم وراء ظهورهم وغموا عيونهم بعصابات، وأشعلت سجائرهم. كانت الشمس لا تزال تحرق حدقتي عينيه تحت الغمامة كجمرة تشتعل بوهج حار، تذكر أمه تخرج أرغفة الخبز من التنور الملتهب بالنار، حبيبته التي ارتدت نفنوفًا ورديًا مطرزًا بأزهار بيضاء احتفاءً بعودته من الجبهة في إحدى الإجازات، تذكر بيته الريفي من حصران القصب، تذكر أشياءً كثيرة مرت بسرعة، ولكنه لم يتذكر أبيه لأنه مات قبل ولادته ولم يترك حتى صورة له، ولم تحدثه أمه عنه أبدًا.. في تلك اللحظة تنبه لسعال شديد كان يصدر من أحد رفاقه، ولم يعرف هل هو بسبب خوف يحاول إخفاؤه، أو

بتأثير هواء الليل البارد ودخان السيجارة الذي أثار تلك النوبة الشديدة من السعال، وقال: يالله كم الليل هادئ..هـ..

- خذوا نفسًا قويًا.. عميقًا جدًا، ليدخل الدخان بقوة إلى صدوركم، نـا.....

وفي تلك اللحظة صاح الضابط بالفرقة التي استعدت لإطلاق النار.

- الآن سددوا بنادقكم على نيران سجائرهم، أطلقوا النار..

وأطلقت البنادق العشرة نيرانها، ودوت كالرعد في سكون الليل، في سماء صيفية صافية أحدثت الرصاصات في زرقتها المعتمة عشرة ثقوب بلون الدم وعشرة نجوم بلون الدخان، ثم عاد الهدوء يلف ظلام المعسكرات الخلفية الغارقة بليل القسوة والخوف...

obeikandl.com

قبيل الفجر

عند انبلاج الفجر أدى صلاته، وخرج يتلمس طريقه في غبش العتمة، كان عليه أن يقطع المسافة سائرًا بين البيوت، ليضع قدميه عند حافة الطريق المعبد وينتظر سيارة ما تلتقطه.

توقفت حافلة صغيرة قادمة باتجاه المدينة، صعد إليها واندس بين ركابها الذين أضاء وجوههم أول شعاع من شمس الصباح الدافئة، فارتعب الرجل لصورهم المخيفة، أجفل مرتدًا لكن الحافلة تحركت بسرعة كأنها سمكة مذعورة. خمن عدد الركاب فكانوا لا يزيدون عن الستة، متكومين في المقاعد الخلفية وكأنهم كتلة واحدة لا يبان منها سوى رءوس كليبة وآذان منتصبة متوجسة وحذرة، تسمر الرجل في مقعده وأغمض عينيه وتلا صامتًا آية الكرسي واستعاذ بالله من الشيطان سبع مرات، وعندما فتحهما ونظر من نافذة الحافلة المقضبة بالحديد عرف أنهم انحرفوا عن الطريق العام ودخلوا مقبرة وادي السلام الكبيرة منذ دقائق، فلم يتسنى له معرفة مدخل المكان لأنهم الآن صاروا في وسطها وحولهم في كل مكان وعلى مد البصر قبور لا حصر لها، كانت الحافلة تسير في طريق ضيق ينغلق أحيانًا بأحجار قبور تهدمت منذ أزمنة متفاوتة، توقفت السيارة وكان بمقدورها مواصلة السير، ورغم أنها تجاوزت

كثير من العقبات التي سببتها أكوام الحجارة وقضبان الحديد، إلا أنها لسبب ما يجهله همدت حركتها وساد المكان صمت المقابر الرهيب، الذي يسلب التفكير بأي شيء سوى رائحة الموت الطاغية بقوة على المكان.

ترجل الركاب الذين كانوا قابعين في مؤخرة الحافلة، واتخذ كل منهم مقعدًا له على قبر قريب منه، وبعد دقائق قليلة نزل السائق ونظر حوله ثم مشى خطوات وجلس على قبر مرتفع شيئًا ما عن القبور المحيطة به، ولما استقر مقامه التفت إلى الجالسين الستة وخاطبهم بصوت كأنه صفير الريح:

- ليأتي أحدكم بالمتهم.

أُنزل الرجل وأوقف وسط الرجال ذوي الوجوه الكلبية، في حالة غريبة من صمت مريب وخوف من شيء مجهول لم يستطع طوال الوقت أن يكتشف كنهه. كان يقف مواجهًا السائق الذي بدا له في هيئة آدمية عادية فهو رجل ملتح في متوسط العمر يرتدي ملابس عادية كالتي يرتديها هو.

كان الربيع قد وشى أرض المقبرة الرملية بأزهار صفراء جميلة، تمنى لو ينحني ويقطف واحدة منها كما كان يفعل كلما جاء لزيارة قبر أمه، كان يأتي وقت الربيع في ساعات الصباح الباكر ليوم الجمعة، ليتجنب الزحام الشديد، يستأجر قارئًا لتلاوة سورة ياسين، وعندما يكتشف أن القارئ يخطأ كثيرًا في تلاوتها، يعطيه شيئًا من النقود ويصرفه، وكان ذلك يتكرر في كل زيارة يقوم بها إلى أن عاهد نفسه على حفظها والاستغناء عن هؤلاء القراء، كان والده الذي توفي قبلها ببضع سنوات قبيل الحرب لا أثر لقبره الآن، فقد

اندرس تمامًا بعد أن سوته الجرافات مع قبور كثيرة في فترة عصيبة من الزمن، أصاب الأموات ما أصاب الأحياء من ضيم نتيجة لغضب السلطات الحكومية في العاصمة.

كان إحساسه يزداد شيئًا فشيئًا بأن أمه قريبة جدًا منه، حتى خُيل له أنها تناديه وتحثه وتأمره أن يأتي لها بسرعة وبدون تأخير، وللحظة فكر أن ينسى أمر هؤلاء المسوخ ويخطو مبتعدًا عن هذا المكان الغريب، ولكنه انتبه لهريرهم الذي أفقده صوابه، كان لعابهم الكثيف يسيل من أشداقهم المسترخية نازلاً ليغطي الرمل دون أن يتسرب شيئًا لداخله، شاهد ذبابة طنت أمام عينيه ثم حطت على اللعاب، وحاولت الفكاك لكنها التصقت به بقوة وفقدت حركتها.

كانت بعض الفراشات البيضاء تطير بمستوى القبور وتستريح لبرهة على شواهدها، ورأى نحلة أحدثت أزيزًا متواصلاً استقرت على زهرة صفراء ثم طارت وحطت على أخرى في مرح وحيوية. تذكر يوم دفنت فيه والدته، كان صباحًا شتويًا باردًا، والبرد يشتد أكثر في المناطق الصحراوية، كان الحفار قد أوشك على الانتهاء من عمله عندما وصلوا، أنزلوا التابوت من سطح السيارة، وأجلسوه على الرمل بضعة خطوات عن حافة القبر، وقُرأت سورة ياسين، ثم قربوه خطوة خطوة حتى صار عند الحافة، أبقوه لدقائق وقرأوا سورة ياسين مرة أخرى، ثم أخرجوا الجثة من داخله وحملوها ملفوفة بالأكفان وأنزلوها القبر، وأوسدوها لحدها في شق جانبي بمستوى خصر الدفان الواقف داخل القبر متجهًا برأسها نحو القبلة، ثم أغلق الفتحة بحجر وخرج..

فأهيل التراب وسقي بالماء، وعندما عاد لزيارتها في الأربعين وجد أزهارًا صفراء نابتة حول قبرها ومنتشرة في كل مكان من المقبرة.. في ذلك اليوم وجد أنهم أنجزوا مهمتهم في اليوم السابع فبنوا قبرها وأقاموا عليه شاهدًا مصبوغًا بدهان أبيض ومخطوطًا بلون أسود، يحمل اسمها وتاريخ وفاتها مسبوقًا بالآيات الأربع الأخيرة من سورة الفجر.. كان وهو يستعيد تلك الذكرى الحزينة يحب أن يعتذر لها ويبكي بمرارة عند قبرها، لكن صوتًا أجشًا خشنًا هز طبلتيّ أذنيه مزمجرًا نابحًا، قاسيًا مثل الموت.

- هل تحمل معك أوراقًا رسمية؟ سأله الرجل الذي أمامه:

- أوراقًا رسمية، لا.. لا أحمل شيئًا معي.

- وماذا في هذه الصرة التي معك؟

- شيئًا من حلوى وقماشًا أسود.

- لمن الحلوى؟

- لحفيدي.

- والقماش الأسود؟

- لزوجة ابني.

- ولماذا أسود؟

- لأنها أرملة.

- أتعني أنها أرملة ابنك؟

- نعم سيدي.

- ومتى؟

- منذ أربعين يومًا

- وكيف مات؟

- مقتولاً.

- كيف؟

- بتفجير سيارة.

- وأين؟

فكر الرجل بماذا يجيب فللمكان دلالات وربما يكتشفون هويتي أن أخبرتهم ولكن لابد من إخبارهم بمكان حيادي نوعًا ما.

- يقولون في السوق الكبير.

- وهل كان تاجرًا؟

- لم يكن تاجرًا يا سيدي، كان عتالاً كادحًا.

تمتم الستة بلغط وتبادلوا النظرات النارية فصاح بهم القائد، اصمتوا.

- عملية السوق الكبير التي نفذتها مجموعة الكلب الأسود المسعور.

- وهل عثرتم على جثته؟

- لا يا سيدي.

- لا بد أن لحمه المحترق اختلط بشيء من التوابل والبهارات.

- لا أدري يا سيدي، لم نعثر له على شيء.

- أحسن، كفيناكم تكاليف جنازته ودفنه أليس كذلك؟!

- نعم سيدي.

- والآن أين هويتك الشخصية؟

- لا أحمل هوية ماذا أصنع بها!

- ماذا تصنع بها! نعرف منها اسمك وأين تسكن؟

- أسكن حيث المكان الذي التقطتموني منه.

- لا يكفي قد تكون هاربًا ولجأت لهذا المكان.

- لست هاربًا يا سيدي.

- ما اسمك إذن؟

ولكنه في قرارة نفسه يعترف أنه كان هاربًا طوال حياته، كان خائفًا كحيوان مطارد، منذ أن تخطى عتبة طفولته البائسة وعندما ترك ملاذه الآمن في أقصى مدن الجنوب، ودرج يتلمس خطاه الواهنة والمترددة في زحمة المدينة. يومًا ما قبل أربعين عامًا كاد يفقد حياته لمجرد أنه كان يرتدي ربطة عنق حمراء، الألوان كانت تتماهي آنذاك مع الأفكار السياسية، واليوم هو في امتحان آخر جديد امتحان الهوية الشخصية، اللعنة، كيف تكون الهوية سببًا لكل هذا العذاب، ماذا سأقول لهم، من أكون..؟ من أنا..؟، وما هو اسمي واسم أبي ولقبي ومسقط رأسي..؟ كل هذه المسميات أصبحت خطرة؟ لا أدري ما هي الأسماء التي تعجبهم والتي لا تعجبهم! سأقول لهم إنني نسيت اسمي تركته في البيت عندما خرجت، أو إنني لم أعد بحاجة إلى أي اسم، استعضت عنه برقم من الأرقام، فعلى الأقل هي حيادية مسالمة لا تثير في النفس أي تداعيات من الماضي أو

الحاضر، ولا تستفز المشاعر.. لأقل لهم إنني استبدلت اسمي برقم أربعة عشر، لا.. لا، هذا الرقم ليس حياديًا ولا بريئًا رقم ثمانية أو رقم عشرين، رقم عشرة، لا.. لا.. اللعنة هذا مستحيل كلها أرقام مشاغبة متمردة وتحمل في طياتها شيئًا من التحدي والعنف، لأقل لهم إني أحمل رقم واحد بدلاً من اسمي الشخصي، لا، رقم واحد هو خاص بلفظ الجلالة ولا يشترك به أيًا من البشر واثنان يحمل معنى الازدواجية وهو ذو وجهين، اللعنة.. ماذا أقول يا إلهي؟

- نسيت اسمي يا سيدي ولست أحمل اسمًا ما، أنا هنا أمامكم رجل على عتبة السبعين أعاني من تدهور الذاكرة وكل ما أتذكره هو أشباح الماضي، اختلطت في ذهني أشياء كثيرة يصعب عليّ التمييز بينها.

- هل أنت مجنون أيها الرجل؟ أسألك عن اسمك فتجيبني بهذا الهراء.

أطلق أحد الستة صوتًا أشبه بنباح متقطع:

- كأن هذا الرجل يهذي من شدة الخوف.

سأل القائد:

- هل تحب أن تعيش أو تموت؟

- لا أدري يا سيدي أنت من تقرر ذلك.

- أجل نحن سنقرر ذلك ولكن ليس الآن، سيكون في منتصف الليل والتنفيذ عند الشروق غدًا.

- ولكن ما هي التهمة يا سيدي، ما الذنب الذي اقترفته؟

- جريمتك أنك خرجت اليوم قبيل شروق الشمس، هذه تهمتك.

- ولكنني يا سيدي اعتدت الخروج في ذلك الوقت كل يوم.

- كل يوم لا يعني لنا شيئًا، إلا هذا اليوم.

- وهل هو يوم معين بالذات كأن يكون هذا اليوم هو الجمعة!

- ليس بالضرورة أن يكون الجمعة، أي يوم آخر المهم أي يوم نقرر فيه إنزال عقابنا على المخالفين لنا.

كانت الشمس تميل إلى الغروب وتختفي وراء أسوار المقبرة البعيدة والتي لا تبدو للناظر من هذا المكان القصي، إلا أنه قدر أن يكون هذا المكان في أطرافها الممتدة نحو الشرق والمعزولة عن المدينة والسابلة.

اقتادوه إلى سرداب نزلوا به بضعة سلالم وتركوه في ظلام القبو، وخرجوا يحرسون مدخلة، كان ضوء النار التي أشعلوها يضيء خافتًا شيئًا من المكان، وكان يسمع أصواتهم النابحة تمتزج بنباح كلاب المقبرة المتوحشة، وفي منتصف الليل حدث عراك ضاري بينهم وبين كلاب المقبرة التي كانت تهاجمهم من كل الجهات، وكان صراخهم المرعب يمزق صمت القبور ويسحق كيانه المتهدم، إلا أنه تماسك ودفن رأسه بين ركبتيه المرتعشتين وأخذ يتمتم بأدعية علها تدخل الهدوء إلى روعه، كان يريد أن يخرج من القبو الذي حبسوه فيه ويستنجد بالأموات، كان يريد أن يصرخ بأعلى صوته مناديًا أمه أن تهب لمساعدته، كان يعلم أنها لطالما دافعت عنه في مواقف صعبة، كانت امرأة شجاعة نشأت كالرجال في بيئة ريفية قاسية، لم يناد أباه لأنه يعلم أنهم طمسوا آثاره، فهو بالنسبة له رحل عن هذا العالم مرتين مرة يوم وفاته والمرة الثانية عندما مسحوا قبره

من الوجود. كان يريد أن يخرج ويقاتلهم ولكنه كان متعبًا وخائر القوى. كانت المعركة بينهم وبين كلاب المقبرة تشتد تارة وتهدأ إلى أن بزغ فجر صباح اليوم التالي فخمدت الأصوات فجأة، وكان المكان قد لفه سكون مطبق لا تسمع سوى صوت الريح تصفر بين القبور، خرج من القبو فلم يجد أحدًا منهم كأن القبور التهمتهم فجأة وأخفتهم عن الأنظار، كانت السيارة جاثمة في مكانها، وعندما سار للمكان الذي كانوا فيه يوم أمس، شاهد من بعيد مجموعة من الرجال يطلقون النار من بنادقهم على الكلاب السائبة التي كانت تعوي بحزن عندما تصيبها رصاصة قاتلة وتخر مضرجة بدمائها، احتمى وراء قبر مرتفع وأصاخ السمع للرجال القادمين وعندما ابتعدوا عنه ولم يعد يسمع أصواتهم، انتصب واقفًا واعتلى أحد القبور وصاح بصوت خنقته العبرات:

أيها الراقدون سلامًا.. سلامًا، أحقًا ترقدون هنا بسلام..

التمثال

كان تمثالاً عملاقًا لم تألفه العاصمة من قبل، ينتصب على قاعدة رخامية بيضاء تنتشر فيها عروق دموية متنافرة، يرتدي بدلة جنرال أو ربما رتبة أعلى من ذلك، يحيط به سياج معدني منخفض في داخله أحواض زهور وشجرة وحيدة تلتصق بظهره، امتدت إحدى فروعها ملامسة رقبته الغليظة، كانت يده اليمنى مرفوعة قليلاً فوق مستوى كتفه، كما لو أنه يحيي جنودًا يستعرضهم أمامه ذاهبين للقتال، بينما يسرح ببصره بعيدًا وراء حشد كبير من الأشجار المتراصة في المتنزه القريب، ينظر إلى أفق بعيد أوسع، لا يعلم أحد مداه، وفي قصره الكبير المتواري عن الأنظار خلف أسوار عالية وأشجار كثيفة، اختفت كثير من الأسرار، يموج في ساعات النهار والليل بحرسه الخاص، جميع الطرق إليه تفوح منها رائحة الخوف والموت، وهو في غموضه وانكفاءه عن محيطه الخارجي، كأنه قلعة حصينة معلقة على رأس جبل شاهق، لن يجرؤ أحد أن يدنو منه دون أن يخاطر بحياته، حتى النوارس التي يفيض زعيقها نهارًا فوق أمواج النهر المتهادية نحو الجنوب، تبتعد للضفة الأخرى محلقة عاليًا، خرساء في سماء ساكنة كسبيكة زجاج توهجت لبرهة في فرن ثم جمدت بعد خروجها وملامستها للهواء، يفقد النهر

مرحه وكركرة مويجاته، فينساب ضامرًا ناحلاً منسلاً بهدوء بين ضفتيه عندما يقترب من المكان، كأن قوة مجهولة تجبره أن يتصرف خلاف طبيعته المفعمة بالحيوية والنشاط، من هنا يودع النهر الناس الذين اكفهرت سماءهم بمدلهمات النذر وفداحة الخطوب المختفية في طيوف الغيوب، حزينًا على ما ستئول إليه الأيام القادمة تاركهم لقدرهم المحتوم، ميمًا وجهه نحو الجنوب الغارق في بؤسه المقيم، ومن مركز القصر تخرج أنصاف أقطار دائرة لبضعة كيلومترات، يدخل في إطارها الخارجي التمثال والمتنزه الذي صار ضمن محمياته، من مركزها تمتد أذرع أخطبوطية طويلة تصل بسهولة وقدرة فائقة لأي مكان خارج هذه الدائرة المحكمة الإغلاق، والقصر في طراز عمارته لا يشبه سرايا عثمانيًّا أو قصرًا ملكيًّا، فهو لا يعدو أن يكون مجموعة من المباني المتراصة كأنها تفرض على نفسها حصارًا ذاتيًّا يأخذ بعضها بخناق البعض، وفي تصميمه شيء من عبقرية تخطيط المدن القديمه المندثرة تحت غبار النسيان والمطوقة بالأسوار والأبراج، والتي كان هاجسها دائمًا صد هجوم متوقع يقوم على عنصر المباغتة الصاعقة والإغارة الليلية، من عدو لئيم غادر متربص متعطش للقتل وسفك الدماء، ينتهز فرصة للانقضاض بشراسة وقوة باطشة، يأتي كريح مميتة تندفع بوحشية لا تلوي على شيء، ولا تترك وراءها سوى الخراب والدمار، وفكرة بناءة في هذا الزمان ربما كانت إرثًا مزدوجًا لمدن مستباحة حفرت في الذاكرة الجمعيه آثار اكتساحات وغزوات مدمرة، أو هي حصيلة

تجربة متراكمة من سجل غزاة صحراويين قساة، تركوا بصماتهم في عقول من شيدوا هذا القصر فضبطوا حساباتهم وتوقعاتهم المبالغ فيهما أحيانًا، احترازًا من مستقبل مجهول غامض محفوف بالمخاطر، ضلوا ينسجون على منواله سلوكياتهم وأحاديثهم المتخمة بتقديس القوة والحيطة والحذر مما يخبئه الغيب من مفاجآت لا يعلمها إلا الله، في أروقته يتخاطبون بلغة اندثرت مفرداتها منذ عقود من الزمن، ولكن لا تزال نبرتها المتعالية ومعانيها المبطنة تفوح منها رائحة الصحراء ولون الخيام المنسوجة من شعر الماعز الأسود، في هذه الأروقة تزي الرعاة بملابس سكان المدن وسرحوا شعورهم بطريقة عصرية، وسمحوا لشواربهم الكثة أن تنمو وتسترخي على جانبي شفاههم، ومنحوا أنفسهم الحق بالتباهي على الناس بأنهم من سلالة عريقة ونسب رفيع، يضرب عميقًا في التاريخ الصحراوي لبضع مئات من السنين، لحسوا عسل المدينة بأطراف ألسنتهم، تمطقوا بحلاوته وأعينهم لا تزال تدمع من أدخنة مواقدهم، أسلحتهم لا تفارق حجورهم عندما يجلسون لارتشاف قهوتهم المرة، جاهزة بالذخيرة في أي لحظة لتدمدم بالغضب، يستوي عندهم القوي والضعيف، وعندما تجتاحهم سورة غضب مفاجئ عنيف تلتهب آذانهم بالدماء، فينقلبوا في لحظة حنق شتامين محترفين، لا يشق لهم غبار وتقذف أفواههم أقذع الشتائم، وكان الجنرال يمثل لهم رمز عبقرية القبيلة ومجدها الذي لا يضاهيه مجد، جسدوه ماديًا وهو لا يزال يعيش بينهم، بهذا التمثال الضخم وتماثيل أخرى بأوضاع

مختلفة في طول البلاد وعرضها وعشرات الأيقونات المنتشرة في معابدهم، وقد ابتكروا بمرور الوقت مناسبات يحتفلون بها بمولده الأسطوري، فقالوا إنه ولد من زواج رجل صحراوي وامرأة جبلية، وأنه لحظة ولادته صرخ بوجه أمه وأمرها أن تعود لأهلها ثم ترجع حاملة معها سخلة بين لها أوصافها، وكذلك شكوة من جلد جدي صغير مليئة بحليب الماعز، الذي قال إنه يحبه كثيرًا ويفضله على حليب أمه، وذكر للنسوة اللاتي يحطن بأمه بأنه كان يتململ في بطن أمه ويريد الخروج، ولولا أنها وضعته اليوم ولم تتأخر أكثر من ذلك لبقر بطنها وخرج منه، لأنه يكره أن يبقى حبيسًا مدة أطول، حيث قال أن القبيلة تنتظره وهو مكلف من السماء لحمايتها من جيرانها الطامعين بخيراتها..

كانت الأضواء الساطعة تغمر التمثال ليلاً فتلتمع عيناه الغائرتان ببريق ناري يرمي شررًا في كل الاتجاهات، وهو في وقفته الاستعراضية المتباهية يهيمن بفجاجة على عقولهم، وينتزع منها ما هو فطري وعفوي عند التماس مع الأشياء وخاصة التي تكتسب مرتبة الفن والجمال، ولو أتيح لأنجلو أن يلقي نظرة إليه لخر على وجهه مصعوقًا، كانت النجوم التي تزين كتفه قد أبيضت نتيجة ذرق العصافير التي تفضل أن تتخلص من فضلاتها في هذا الجزء من التمثال.

كنت في تلك الأمسية الصيفية أقف على رصيف الشارع منتظرًا سيارة أجرة، أتأمل التمثال من بعيد عندما توقف أحدهم أمامي، وتبعثرت من فمه بضع كلمات التقطتها بصعوبة وفهمتها على أنها تساؤل عن سبب وقوفي وتأملي

للتمثال، قلت: لا أدري.. ربما الفضول، أو سمه ما شئت، تمضية للوقت مثلاً.. لا ليس صحيحًا أنت تتساءل مع نفسك هل هو حقًا يعرف كل شيء كما يدعون.. ضحكت بطريقة استنكارية كما لو أنني أردت أن أدفع تهمة توشك أن تلصق بي أمام مجموعة من الناس، وقلت بشيء من العفوية: وما يدريك أنني أريد ذلك! قال ضاحكًا وكاشفًا عن أسنان سودها التدخين: انتظر سأثبت لك ذلك.. قلت: كيف..؟ قال وهو يجمع أصابع كف يده اليمنى للأعلى في حزمة واحدة تنتهي متحدة في أطرافها ثم يحركها إلى الأعلى والأسفل برفق: انتظر وسترى...

وبخفة قرد صعد فوق قاعدة التمثال الرخامية ثم تشبث يداه بإحدى الساقين الغليظتين، رافعًا جسده النحيل كأنه يتسلق نخلة منزوعة الكرب، ليتعلق باليد المرفوعة بالتحية وما إن أمسك بها حتى رفع جسده مرة أخرى ليصل برأسه لمستوى الذراع، ثم رفعه قليلاً حتى لامسها ببطنه، فتمكن أن يستلقي بجسده كله عليها ودلى رجليه على جانبيها كأنما يمتطي ظهر حصان، وبعد ذلك انتصب واقفًا كمهرج في سيرك وأخذ ينظر في عيني التمثال وصاح بأعلى صوته: أيها الناس أترون كما أرى أن عينيه جامدتان كعيني كلب ميت، وأنه لا يعرف شيئًا مما يدور في رءوسكم.. ولو تمكنت من اعتلاء رأسه لبلت عليه أمامكم..

كنت في تلك اللحظة قد أوقفت سيارة أجرة، وقبل أن أطلب من السائق إيصالي لمكان سكني صعقني أن بينه وبين الرجل المخمور تشابه مذهل، شيء يثير الدهشة

والاستغراب، مضت بنا السيارة سريعًا فغاب عني بقية المشهد، سألني السائق: هل سمعت إطلاق النار، قلت: بل سمعت صوت ارتطام شيء بالأرض ربما الرجل اختل توازنه وسقط أثناء محاولته التسلق، قال السائق: لا لم يسقط وإنما أُسقط بإطلاق النار عليه.. قلت: كنت أتكلم معك ولم أكن منتبهًا.. قال مؤكدًا: كانت ثلاث طلقات من بندقية كالتي يستخدمها الجنود، أنا متأكد أنها من نوع كلاشينكوف وليست مسدسًا، لقد أمضيت في الجيش ربع عمري.. واسترسل يروي عدد سنوات الخدمة الإلزامية وسنوات الحرب ومدة الاستدعاء بعد الحرب.. وأنهى استرساله بالحديث قائلاً: تستطيع أن تقول كان قرائًا لا انفكاك منه ولا مهرب.. أرايت أنني متأكد مما قلت. قلت وكنت أنوي أن أنهي الحديث بيننا..: أنا لم أخدم.. كنت معفيًا من الخدمة، ابتسم وكشف عن نفس الأسنان المتفحمة قال: أنت محظوظ يا رجل.. محظوظ جدًا، ثم أردف قائلاً: سنتوقف عند مركز الشرطة لأقدم تقريري، لابد أن أبلغ عن الحادث قبل أن.. وسكت، وبعد توقفنا ركن السيارة عند الرصيف وترجل وطلب مني الانتظار، غاب عني بعض الوقت ثم عاد طالبًا مني أن أدلي بشهادتي أمام الضابط، ولم ينفعني احتجاجي بأن ليس عندي ما أقوله، تسمر في مكانه بجانب السيارة فخرجت واتجهت للداخل، وسألت عن مكتب الضابط فأرشدوني إليه، فدخلت وارتجلت كلامًا لم يخطر على بالي إلا تلك اللحظة، قلت له: إن ما رأيته مساء اليوم هو حادثة انتحار، فالرجل كان مخمورًا وكان ينوي الانتحار، وقد

سمعته يصرخ بذلك وسمعه جميع الناس المنتظرين في موقف الباص، وأن اختياره للتمثال لتنفيذ مأربه إنما كان يريد منه إعلان انتحارة وتوثيقه بهذه الطريقة اللافتة للنظر.. وعندما أنهيت إفادتي وخرجت للشارع لم أر السيارة ولا السائق، لقد اختفيا كما يختفي الحلم لحظة اليقظة، وفي المنزل رويت لزوجتي بعض مقاطع من الحادثة، كنت أحاول ربط أجزائها بخيط واه، متجنبًا فواصل الخوف والقلق الذي شعرت بهما أثناء عودتي، وفي نفس تلك الليلة حلمت أيضًا بالتمثال، رأيته في هدأة الليل بعد أن أطفأت عنه الأنوار الساطعة وساد المكان السكون والظلام، سمعته يتذمر ويضج بالشكوى من صخب المكان وضجيجه، ومن شدة الإنارة التي ألهبت جسده كان يتذمر ويتذمر... نهرته الشجرة الملتصقة بظهره بعنف.. كفاك تذمرًا كأنك امرأة عجوز باتت ليلتها من دون عشاء..أنت شجرة وقحة كيف تجرأين على مخاطبتي هكذا.. وكيف تريدني أن أخاطبك أيها الجنرال العظيم! اخرسي أيتها الشجرة الملعونة.. وأنت من تحسب نفسك أيها المغرور.. أنا جنرال عظيم وأنت مجرد شجرة حقيرة بكلمة واحدة مني يقتلعوك ويرموك على الأرض فتصبحين حطبًا للنار.. أنا الحياة وأنت مجرد حجر أصم.. غضب وصاح بها مزمجرًا.. لا أدري كيف تركوك هؤلاء الأغبياء باقية كل هذه السنوات تكبرين وتمدين فرعك حول رقبتي ألا يكفيني صياح طيورك المزعجة وقذاراتهم المقززة.. كفاك شكوى، بسبب هذه الأشياء التي تسميها قذارات تسبح كل مساء تحت رشاش من المياه الباردة، ألا تشعر ببرودتها ألا

تصل إلى قلبك الميت بعد أن يتبرد جسدك من لهيب الشمس التي تشويك بنارها كل يوم.. اللعنة عليك وعلى الذي زرعك في هذا المكان لو أنني أعرفه لشنقته على أحد فروعك الكثيرة.. لن تستطيع وسنرى من يقتلع الآخر..

رأيت الشجرة بعد هذا الحديث تفتح أذرعها العديدة تستقبل العشرات من الطيور والعصافير، يئوون إليها عند هبوط الظلام، وكانت سعيدة بلغط أصواتهم ورفيف أجنحتهم، منتشية بعودتهم كل مساء إلى أحضانها الدافئة، تغمرهم بحبها وحمايتها، وهي تشعر بأن الحياة أخذت تدب في أوصالها فتهتز طربًا لتلك الضجة التي يحدثونها قبل أن يهجعوا بين أغصانها المتشابكة وأوراقها الكثيفة، تهتز مرتعشة بنغمات شجية، تنصت للأصوات الضاجة حتى تتقطع ويعم الهدوء والسكون فتقول لضيوفها تصبحون على خير..

وتبقى هي ساهرة كل ليلة تحرسهم بمحبة وامتنان، لأنهم يشعرونها بطعم الأمومة.. ويظل التمثال يحترق غيظًا، منتظرًا الصباح ليصدر أمره بقطعها، وعند بزوغ كل فجر جديد تدب الحياة فيها وترتفع سمفونية الحب جميلة ومنعشة، وتلون الشمس بخيوط أشعتها الصباحية الدافئة آلاف الأوراق الندية التي ترتعش بهدوء تحت سيقان هذه المخلوقات الصغيرة الرائعة، كان مهرجانًا من الألوان والأصوات والحركة، والشجرة في احتفالها بمولد يوم جديد تمنح الطيور فرحًا يغمرها بالسعادة والحياة.. ثم رأيت زمرة بشريه تحمل جثمانًا وتتجه به صوب التمثال وهي صامتة وخلفها حشد كبير من الناس تتدفق من الشوارع المحيطة به، تحمل فئوسًا ومعاول

وسمعت أصواتًا بشرية غاضبة وهتافات وزعيق كأنها أصوات سيارت أسعاف، وعندما وصلت الزمرة التي تحمل الجثمان المحمول على الأذرع بدون تابوت، سجوا الرجل على الأرض قرب قاعدة التمثال، وتحلقوا حوله بدائرة بوسع السياج الحديدي الذي يحيط بالتمثال، وقفوا صامتين كأنهم يرتلون في سرهم شيئًا على روح الميت، لكنه ما لبث أن نهض بينهم، وألقى فيهم خطابًا قصيرًا، ثم طار وارتفع حتى حاذى رأس التمثال، وحط على أحد فروع الشجرة الذي يتقاطع مع ظهر التمثال، وجثم عليه كطائر وجد أخيرًا مكانًا يرتاح عليه بعد طيران طويل متعب، وأخذ يتطلع للناس وهم يهوون بفئوسهم ومعاولهم بقوة وغضب على التمثال بعد أن تسلقوه وصاروا يغطونه كالنمل، وحينما أفقت من نومي واستعدت حلمي كانت الشمس قد دخلت من شباك غرفتي وغسلت عيني بأشعتها الدافئة، رددت في سري اللهم أجعله خيرًا هذا اليوم، ونهضت من فراشي مبلبل الفكر مشوشًا مما رأيته ومتسائلاً.. أيهما الحلم وأيهما الواقع..

الانكسار

تحتج الأشجار لانكسار أغصانها، ولكن صوتها يضيع في قصف العواصف.

قبضة من تراب الوطن، رائحة قديمة نامت متخفية في طيات الملابس، وبقايا أشياء وذكريات تسللت داخل حقيبة سفر كأنها شراع مزقته الريح..

وانا كأمثالي من رجال حولهم التعذيب إلى خردة بشرية، أعجاز نخل خاوية، وتسألينني من أنت..؟، أعلم أنك لا تسألين عن اسمي، فأنت تعرفينه لكنك تحبين أن تعرفي: من أكون؟ وما هذه السحابة السوداء التي تظلل عيني؟ ولماذا أنا كئيب هكذا دائمًا؟

وأنا لا أرد عليك بحرف واحد، أتشبث بصمتي بعناد لا يتزحزح، كأني فقدت النطق، أبكم، أو أبله لا يعي ما يقال له، وعندما أنظر في عينيك يصيبني دوار، كأنما يوشك أن يغشى عليَّ من سكرات الموت، عيناك تهيمن على روحي بنفس قوة التعذيب الذي كان يستل إرادتي، سطوته العنيفة كانت تجفف روحي فأغدو جذعًا يابسًا لنخلة قطعت ورميت على حافة طريق.

قال لي يومًا في مكالمة هاتفية:

- تعال إلى بيتي أحتاج أن أراك اليوم بعد الظهر..

وذهبت ولم أجده هناك، ورأيت زوجته فأذهلني جمالها الطاغي، ودعتني للدخول لانتظاره، ألحت عليّ فاعتذرت بأدب لعلمي أنهما يعيشان لوحدهما وليس لديهما أطفال بعد، ووسوست لي نفسي بشيء فقمعتها بقوة، ولكنها اخترقت سياج إرادتي بطريقة جهنمية، كانت تطرق بقوة على باب الكرامة التي امتهنها التعذيب، وخلع ألواحه ومساميره وأصبح مشرعًا لأي ريح تهب عليه فترديه، وتقلعه كضرس نخره السوس، لمحت عندما التقت نظارتنا أنها تريد أن تبوح بشيء لا تستطيع البوح به الآن.

الجسد الذي نوليه عنايتنا، ننظفه ونطعمه ونكسيه، نهتم به كثيرًا عندما يمرض يصبح عبئًا عليك، الشيء الوحيد الذي تخاف منه في غرف التعذيب هو جسدك، لأنه قد يخذلك منذ أول وهلة، من أول جلسة وفي أي لحظة، من صفعة ولكمة على الوجه، أو ركلة قوية في البطن أو على الأعضاء الجنسية، يصبح هو العدو الذي تخشاه أكثر من أي شيء آخر.

قال لي يومًا وأنا لا زلت أُنقل من غرفة الاستجواب إلى غرف التعذيب.

- إلى متى ستقاوم وتصمد، أنت لست مثله، ولن تصل إلى نصف درجة مقاومته واحتماله.

- من تقصد؟

- رفيقك ابن الملحة..

هؤلاء هم تراب الأرض وملحه، طمي أنهار الوطن، نكهة الجنوب وشمسه اللافحة، حطبه اليابس لنار الحروب، جنوده الذين يملأون الثكنات، ومعتقلون يقبعون في السجون، ومناضلو الوطن، وهم أيضًا عيون السلطة وكلابها، وشباب مستقيمون ورعون ومتدينون، وهم أيضًا حثالة المجتمع وطبقته الرثة، ورقم يدون أو يشطب عند انتفاء الحاجة، وهم شيء أو لا شيء عند تقلب الظروف والأمزجة.

- ماذا به؟

- اعترف عليك وقال كل شيء.

لم أقل شيئًا، ولكني كنت أشعر بالانكسار، وبمزيج من ألم وغضب يوشك أن يفقدني صوابي، شيء من رثاء رخيص لنفسي وشفقة يائسة عليها.

- أنا توسطت لك، فإذا لم تعترف ستموت تحت التعذيب.

- ماذا ستفعلوا به؟

- سنطلق سراحه.

- متى؟

- لا أدري ربما بعدك بأيام قليلة..

- وأنا؟

- أنت ستكون حرًا طبعًا..

سأكون حرًا، متى كنت حرًا؟، الحرية جواز سفر تخشى أن تبرزه عند مناطق الحدود، تمنح لك ولكن ممنوع

عليك استعمالها، الحرية أن تكون أعمى وأطرش وأخرس، وأن تكون بليدًا وغبيًّا، والأفضل أن تكون معاقًا أو مجنونًا أو ميتًا..

أحيانًا تختلط الحواس وتتبلد وتتكثف وتتشوش، وأنت بين أيديهم يقلبونك كالميت، وأحيانًا تستبد بك رغبة عنيفة أن تنفجر ضاحكًا لا استهزاءً بهم وإنما لأنك تتخيل نفسك طفلاً يؤدبه أبوه، وهو مستحق لذلك التأديب بسبب شقاوته، وأحيانًا تتمرد عليهم وتقاوم وتهاجم فيضاعف لك التعذيب، لا تدري أتشفق على نفسك وترثي لها أم تلومها وتصبرها معنويًّا، وأحيانًا تتساءل كيف يرضى هؤلاء أن يكونوا جلادين، وكيف يبرر رجل لنفسه ضرب رجل مثله لا يعرفه وليس بينهما عداوة أو ثأر شخصي، ماذا يقول لنفسه عندما يختلي بها أو يجلس مع زوجته وأولاده ليتناول الطعام معهم.

- غدًا ستكون طليقًا وسنكون على اتصال..

صحيح صرت طليقًا أنقل هذا الجسد من مكان لآخر، وأعيد له بعض حقوقه وامتيازاته التي فقدها فترة التوقيف، لكنه جسد محطم لروح أصابها العطب، والاثنان في نهاية المطاف عبأ على النفس، كان صباحًا ربيعيًّا غائمًا عندما خرجت، وتمنيت أن تمطر لتغسل روحي من كآبة لا تريم تجثم على صدري، منذ يوم قبل استدعائي لمكتب الأمن داخل المعتقل، وبالرغم من معرفتي بإطلاق سراحي إلا أنني كنت أشد حزنًا من أي وقت آخر.

- سأتركك تستمتع بحريتك وتستعيد قوتك..

وتذكرت قصة الوحش الذي يسمن ضحاياه ليفترسهم بعد ذلك، فما فائدة أن أسترجع ما فقدته بالأمس، اللعنة عليّ إن مكنتهم من نفسي مرة أخرى، سأقتلها إن وضعوا أيديهم القذرة عليّ مرة أخرى..

وعلمت أن صديقي لم يطلق سراحه، وأنه أعدم قبل خروجي بعدة أيام، وقيل إنهم ذوبوا جسده بحوض التيزاب[1].

ومرة أخرى قال لي في مكالمة تليفونية:

- تعال إلى بيتي أحتاج أن أراك بعد الظهر.. وأضاف...لأمر ضروري جدًا.

وذهبت ولم أجده ولما استدرت لأذهب نادتني زوجته بصوت آمر:

- تعال.. ادخل.

فوجدت نفسي منقادًا لأمرها فدخلت، وراودتني، وثارت رغبتي الأولى مع دافع جديد هو الثأر لدم صديقي، وكانت في ملابس النوم التي تبرز مفاتنها الأنثوية الطاغية، وعندما سألتها لماذا لم ينتظرني تغنجت بالجواب، بأنه استدعي لأمرٍ عاجل وطلب مني أن أبقيك هنا حتى يرجع.

- ومتى يرجع؟

- لا أعلم أحيانًا يتأخر لأكثر من ساعة وأحيانًا لا يرجع للبيت إلا بعد منتصف الليل.

واشتكت من طبيعة عمله وتركها وحيدة لعدة ليالي أحيانًا..

---

(1) التيزاب: هو حمض الكبريتيد المركز، وكان يستعمل في السجون، لتذويب أجساد المعذبين من خصوم صدام للتخلص من آثارهم بعد موتهم.

وجلست على مضض، وجاءت لي بشيء أشربه، وكانت أفكار وهواجس متضاربة تتقاذفني كورقة شجر ميتة في مهب ريح عاصف، كانت الرغبة في امتلاكها تحرقني، ولكنني كنت خائف من مباغتته لنا، أو أن ما يجري هو مؤامرة اشتركا فيها ضدي، أفكار شتى كانت تعصف في رأسي، الثأر لكرامتي ودم صديقي بدءا يتلاشيان وحل مكانهما الخوف منه. انتزعت نفسي من هذه الورطة ووقفت هامًّا بالخروج.

- هل أنت خائف مني؟

- لا.. لماذا أخاف منك!

- لأنك غير مرتاح منذ أن جلست..

- لا..لا.. تذكرت موعدي مع الطبيب وقد أتأخر عن الموعد..

وخرجت وهي تودعني بنظرات يائسة ومتوسلة لعليّ أعدل عن رأيي.. وبعد بضعة أيام قال لي في مكالمة هاتفية:

- سأسهر عندك الليلة لأطيب خاطرك، أعرف أنك زعلان مني بسبب الموعد.

وجاء وكانت معه وجلسنا وقمت بواجب الضيافة، ودق جرس الهاتف في بيتي وقمت لأرد، صاح بي اجلس:

- هذه المكالمة لي..

وذهب وتكلم ولم أفهم شيئًا مما قاله، كأنه كان يتكلم بلغة غريبة.. وأتم المكالمة وعاد لمجلسه، فسألته:

- وكيف يعرفون أنك هنا؟

- كيف يعرفون؟ أنا طبعًا أخبرتهم، يجب أن يعلموا مكان وجودي، هذا عملنا ومع ذلك فالناس لا يقدرونه..

وفجأة استعدت شيئًا من شجاعتي التي كانت شيئًا من مخلفات الماضي، قلت بنبرة حرصت أن تكون حيادية وليس فيها شيئًا من الاستفزاز:

- أنا أقدر عمل الرجل عندما يكون صادقًا، ردّ مستغربًا من سؤالي:

- ماذا تقصد؟

- وعدتني أنكم ستطلقون سراح صديقي، ولم تفعلوا.. وأنكم..

- صحيح وعدتك ولكن القضية خرجت من يدي... ولكن قل لي كيف علمت بذلك؟ وقام من مكانه دون أن ينتظر جوابي، واعتذر بأنه مضطر أن يتركنا لأمر عاجل، وأن زوجته ستبقى معي إلى أن يعود من مهمته الطارئة، وشكرني وخرج مسرعًا، وعندما صفق الباب وراءه شعرت بأنه أغلق عليّ باب زنزانتي... كيف يتركها في شقة شاب أعزب يعيش لوحده، لا بد أنه يريد الإيقاع بي، أو أنه شعر بما يختلج في نفسي فهم يفهمون جيدًا نفسية زبائنهم، إذن هو يستهزئ بي ويسخر من فكرة انتقامي منه، وكأنه يقول: هذا الشيء اكتشفته وأنا الذي أدير المعركة ولن تستطيع الانتصار عليّ أبدًا، تركتها معك فإن استطعت أن تصل إلى هدفك فأفعل فلن يضرني ذلك بشيء.

شرفه ثمنًا لشرفي، يا لها من صفقة صعبة الرابح فيها خاسر حتمًا، ما العمل؟ إن قلت لنفسي لا.. سترد عليّ بنعم..

وأنا أعرفها جيدًا إذا رغبتها بشيء فعلت العكس، ولكي أقنعها يجب التظاهر برغبتي فيها وعند ذلك ستحرن وتتمرد، وأنجو من هذا الامتحان الذي وضعني فيه، فأنا كالقاطس في الماء ولا يريد أن يبتل، والمرأة هي كعب أخيل وهي إحدى نقاط ضعفي الكثيرة، وأنا عندما أنظر في عينيها يصيبني دوار كأنني أغرق في دوامة تلفني بعنف، وأن جذع النخلة اليابس قد يحترق من شرارة صغيرة تحيله شيئًا متفحمًا...

- سيدي أنت شارد الذهن وكلما حاولت استعادتك تبتعد أكثر.. قل لي ما بك؟

- من أنت؟

- قلت لك اسمي منذ بداية الجلسة، ولكنك كنت غائبًا عني طوال الوقت..

- أين أنا الآن؟

- أنت في مكتب الأمم المتحدة لشئون اللاجئين.

- نعم صحيح..

- وأنت هنا لإجراء المقابلة الأولى معك بناءً على موعد سابق..

- نعم صحيح..

- أنا اسمي أنجيلا آدم. المسئولة عن ملفك.

ونظرت إليّ أنجيلا بشفقة وحيرة كأنها بدأت تشك في قدرتي على مواصلة المقابلة معي وربما شكت بحالتي النفسية أيضًا..

نظرت في عينيها البريئتين الجميلتين فلم أجد أثرًا لشفقة أو حيرة بل كانتا مليئتان بالحب متأججتان بعاطفة إنسانية جياشة، وأطلقت لنفسي العنان فتوهمت أنها أحبتني..

- سيدي سأجري المقابلة معك عندما تكون مستعدًا ومرتاحًا أكثر.. وسوف نعلمك بالموعد الجديد، سنبعث لك رسالة على عنوانك، هل لا تزال في نفس العنوان؟

- نعم.. نعم..

جرجرت جسدي من المكتب وخرجت للشارع، وكانت السماء تث مطرًا خفيفًا تركته يبللني تمامًا وينساب من شعري إلى رقبتي وصدري، فشعرت براحة وهدأت نفسي مما أصابها من اضطراب وقلق وحزن ومن رغبة عاصفة بالبكاء، فرحت بالحرية التي منحني إياها المطر، وبرودة هواء تشرين الذي لطف حرارة وجهي الملتهب، وتذكرت صديقي وتمنيت أن تسقي قبره زخات مطر كهذه التي تغسل نفسي وتطهرني، ولكنني تذكرت أنه اختفى من هذا العالم ولم يترك وراءه أي أثر..

في تيه البحار

جئني بمتعبيك، فقراءك الذين يعانون من الضائقة، الذين يتوقون إلى الحرية، أشياء الشواطئ اليائسة المكتظة على سواحلك، أرسلهم إلى أولئك الذين لا وطن لهم الذين نفختهم العاصفة، إنني أرفع مصباحي أمام البوابة الذهبية..

هذا ما حفر في قاعدة تمثال الحرية!!(*)

هل أستطيع اختزال حلمي كله بأفق بعيد، حلم يطفو منزلقًا مثل حبيبات زئبق أو زبد طاف فوق محيط شاسع، تحملني مياهه كشيء استهلكه الزمن، شيء مثل طحالب أو أعشاب بحرية ملوثة، ونفايات مما تلفظه شواطئ المدن البحرية، أو ذرة هائمة في فضاء لا نهاية له.. أخشاب متهالكة ومحرك بائس يئز كرجل مصدور يختنق في نومه، وفوقي سماء ما رأتها عيناي من قبل، سوداء نائية وعميقة غائرة بنجومها الوامضة، أو قريبة أحيانًا وفي كل مكان تكاد تطبق علينا وتقتص منا، نحن الذين نعوم على وجه الماء دون إذن منها، لم أعرفها من قبل ولم أقس أبعادها

(*) نقلاً من كتاب (ربما أصبنا بالجنون) تأليف: أوللا بيركيفيج، وترجمة: د. نائلة الصالحي، ط١/ ٢٠٠٣، منشورات الجمل، كولونيا.

بذراعين مبسوطتين لأحتضنها وأقتنص نظرة سريعة لزرقتها الفجة، تتغير في اقترابها، وابتعادها والبحر يشرب زرقتها الرمادية الباهتة ثم يمجها مرة أخرى لهواء مشبع ببخار الماء، سماء كم تمنيت أن أتعلق بها أضع أصابعي مبسوطة مثل سحلية منزلية على سقفها القريب اللدن، لتنزلق بي القهقرى للساحل الذي تركناه خلفنا منذ ساعات طويلة، وساقاي متدليتان تلعقان ماء البحر الدافئ وتدغدغان خياشيم أسماكه، وعندما تصادفني النوارس أبادلها قبلات الآيب من سفر بعيد، سماء أرفعها بكلتا يداي ثم أمضي بها عاليًا عاليًا، وعندما أصل إلى سقفها الصلب البعيد أقلب عاليها سافلها لتنطبق على البحر أو تغوص فيه، لكم تمنيت أن أراها فوقي ولا أرى شيئًا منها كعين مفقوءة لم يبقى إلا بياضها.

لحظات الفرح صارت عصية ولم أقدر على اقتناصها في ليل الغربة، ولم يحتمل الوجه بعد الآن أصغر ابتسامة خجلة ممزوجة بأمل يغامر أن يفضح نفسه، طوال انتظاري لم أستطع أن أقطف زهرة إعجازية واحدة من صحراء اليأس، الروح تضج بالحنين ضجيجًا أزعج مخلوقات البحر، الروح تتخلى عن صبرها بعد أن أضناها انتظار طويل ممل، وتساؤل سقيم عقيم صرت أمتصه وأمضغه مرًّا تحت لساني، سماء تمطها يدان اختفت أصابعها تحت ندف من غيوم بيض توشك عند انشدادها وتوترها أن تتمزق إلى قطع متنافرة، وترميها في متاهات فضائية تتجاوز الأفق الذي كلما اقتربنا منه مد لسانه لنا مستهزئا، جزر ركبت على مياه لازوردية مضيئة، وشواطئ عكرت المياه التي تنوشها جمال زرقتها كأنها لعبة

مكعبات لم تتح لي ظروف الحياة أن ألعبها، يأكل البحر أطرافها ويتقأ ما يأكله رملاً، وأشنات وقواقع وأصداف وبقايا اشلاء بشرية ضلت سبيلها في صحارى البحار، استطابت القروش لحم العراقي شيء جديد لم تذقه من قبل، لحمه فيه طعم أغراها أن تفتش عنه في بحر إيجه وبحار أندونيسيا والمحيط الهندي، ربما ذكرها بسندباد تائه لطالما تمنت يومًا أن تفوز بشيء من لحمه، أنهار وسواق وجداول وفروع أنهار صغيرة تحتضن غابات نخيل نأت من مجرة انتهت وشيكًا، وجثث طفت تحملها صفحة المياه تهدهدها بين الضفتين، تمضي بها نحو مياه أوسع وسماء احترقت وبدت حمراء كامدة كبلورات سكر محروق، ولا تزال الأنهار دون كلل تحمل قرابين الجثث يوميًّا وتمضي بها بعيدًا تحشرها بين سيقان القصب وجذور البردي.. ما الذي حدث..؟

في كل اتجاهات خارطة الوطن، كانت الأرض تهرب من تحت الأقدام، أقدام بجزمات عسكرية وأخرى حافية، وأقدام تغوص في الرمال والوحول والطين، وغرين الأنهار يتشكل في أشكال كثيرة متنافرة، لم نعد نصنع أواني خزفية ولم نزرع الزهور في أصص فخارية، كتل أسمنتية وجداريات أعلى من نخلة مراهقة، عندما وقع بصري على خضرة تضج بفوران الحياة لنباتات استوائية، طرية مشعة بالضوء ومشبعة برطوبة الهواء، وتراب أحمر بلون نحاس سوق الصفافير، وبخار مترع تكاد تعصره بيديك فيترشح منه ماء يكفي أن تشرب منه مدن تشكو من عطش قديم مزمن وهي منقوعة حتى وسطها في الماء.. دهشت بل تخيلت أنني

في جنة عدن، هنا سوف أحط عصا ترحالي، وهنا سوف تحين ساعة أجلي، سيارات ليست مهترئة وألوانها ليست ناصلة أو ضائعة بين الألوان، وألواح زجاج هائلة خضراء ورمادية وزرقاء نظيفة زاهية تؤطر البنايات ذوات الطوابق التي لم تشهدها إرم ذات العماد، وهي تعكس كمرايا كبيرة أشعة شمس نهار المدن المسكونة بالحركة وصخب الناس، تحتها تتوزع مطاعم وأسواق ومكاتب سفر وشركات، وأناس يدخلون ويخرجون وبنوك يحرسها رجال مسلحون ووجوه ليست وجوه هنود ولا وجوه صينيون بل هي مزيج مركب من هذه وتلك، ولغوهم ضربًا من نقر طبول ونقيق ضفادع، وعرب بدون أغطية رأس وعرب بالأغطية، وشقر وشقراوات وسماسرة عملات أجنبية وسماسرة بشر، ومتسولون فقراء على الأرصفة يتسولون بالروبية، ومتسولات الجنس يتعاملن بالدولار، خلجان ومرافئ وأرصفة يحتشد عليها الأهالي، ومنافذ سرية لتهريب البشر، ومهربون محليون وعرب، وبواخر على الأرصفة تنتظر، وسلال وصناديق تنتظر البواخر، رجال ونساء وأطفال ودراجات هوائية ونارية ودخان كثيف، نسينا غبارنا الذي يتسلل رغم كل شيء ويدخل في فتحات الجسم حتى المستورة منها بالثياب والملابس الداخلية، نحن جنس آخر يتآكل ببطء منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، ولا نشبه أحد..

تأملت إحداهن أنفي ولما انتبهت لها أطرت طوله واستقامته وجماله وأشارت إلى أنفها الأفطس، الحمد لله لم يبق لدينا شيئًا نفتخر به سوى هذا الأنف الذي رغم قبحه فهو

جميل، ويتمنون أن يلتصق بوجوههم كما تلتصق بنا الحروب والأمراض والتاريخ المثقل والمترهل بالحوادث المفجعة، والأزمات والحصارات الطويلة، وتحاصرنا الخيبة على كل أرض تطأها أقدامنا.. الرجال والنساء على هذه البقعة من الأرض في سن الشباب ونعومة الأطفال، الوجوه ملساء كأواني نحاسية أو خزفية، وشعورهم وشعورهن سوداء طويلة مسرحة ومسدلة على الأكتاف ولامعة ببريق زيت جوز الهند، والعمر يتكتك ببطء كأبريق شاي يتخدر بدون استعجال، تستطيع أن تطوي الفتاة من هذه السلالة الرقيقة العظام بين يديك أو تكورها بين ساقيك، وعندما تستلقي تحتك فتصير كدمية شمعية لينة تخشى عليها من التلف أو ربما تختفي وتذوب لحظة نشوتك.

أفتش عن دليل يعبر بي البحر العباب، يحار له جرأة ابن ماجد ونبل السندباد البصري، يعرف أنواء البحر أركب معه على موجة تأخذني إلى أرض قصية لا ينتصب أنفي هناك كأثر من زمن غابر، زمن داحس والغبراء والبسوس.. الهائمون والمنفيون والمخصيون والراكعون والهاربون في كل الاتجاهات يتسكعون في شوارع المدينة في مطاعم الوجبات السريعة، أو يختبئون عن أنظار البوليس، هنا يخططون على عجل لمستقبل جديد لكنه مثقل بإحباطات الماضي الذي يحملونه في ذكرياتهم المدجنة، كما يحملون جوازاتهم المزورة وعاهاتهم المستديمة من حروب خلفوها وراءهم، لا يزال شبقها يتوق لمضاجعة تراب السواتر الباقية، تشهد لمرحلة نزوات صبيانية بائسة وميتة ولكنها لا تزال تحتفظ

بجمرتها التي لم تنطفئ بعد، حروب فتحت لهم من كوات جهنم السوداء أبوابًا تسللوا منها خلسة لعوالم جديدة لم يسمعوا بها من قبل، خاضوا حربًا إثر حرب كما لو أنها كانت قدرهم الذي لا مهرب منه أو دينًا عليهم سداده بأي ثمن، وفي هذه المدينة (جاكارتا) لا شيء فيها يشبه مدنهم المنقرضة التي زحف الصدأ والعفن إلى مفاصلها ورتاجات بواباتها القديمة، وعششت العناكب والخفافيش في سقوفها الهرمة، وتسللت أفاعي الصحراء إلى جحورها وخرائبها المهجورة، قدر الناس في مدن الدنيا أن يملأوا الشوارع بالسيارات والضجيج، قدر لا يمليه عليهم أحد من فوق رءوسهم، وعندما يرهقهم التعب يناموا في بيوتهم دونما خوف من طارق ليل يدهمهم وهم نيام، ليل ينشط فيه عسس وتموج فيه عقارب تفتش عن ضحاياها بجنون، نوم قلق ما أن تضع رأسك على الوسادة حتى تهطل عليك الهموم من السقف وتحاصرك الحيطان بأشباح النهار ورؤى الذين رحلوا دون كلمة وداع، الخوف من اليوم الذي مضى والذي سبقه والذي سيأتي بعده، أشباح من ماتوا ومن ينتظرون الموت.. بكل ما في ساعات اليقظة من قسوة وحزن يذكرك بها صمت الليل الأبكم وحلكة الظلام وهمس خافت مجهول يتسلل إلى فراشك عندما تندس فيه من برودة شباط، أو تفتح عينيك إلى سماء تتحول فجأة إلى ما تشبه الألعاب النارية يمزق صمت ليلها دوي وقصف وأصوات انفجارات، السماء تمطر نيرانًا وتحت قدميك تهتز الأرض، الأموات تذكرهم إحصائيات سريعة.وتتلقفهم المقابر من أماكن مختلفة، من ثلاجات

المستشفيات أو من فوق أكوام المزابل، ورغم ذلك فالموت له وجه واحد واسم واحد وهو في منتهى العدل في مساواته عندما يأتيك قابضًا من ملك موكل به، ولكنه خلافًا لعادته يأتي بزي رجال غلاظ يتسورون البيوت ويسطون على المنازل من السطوح، لصوص الموت هؤلاء ينتزعون الحياة بأوامر من جهات عليا.

موعدي مساءً مع المهرب سأسلمه النقود والجواز المزور وأعرف منه متى سيقذفنا لأمواج المحيط التي ربما ستكون أكثر رأفة منه، الترتيبات تجري بسرية رغم العلاقة الموجودة بينه وبين البوليس هم شركاء في الصفقة، رجال ونساء وفتيات وأطفال، شباب فرحون مبتهجون لمجرد أنهم عبروا بوابة المراهقة بأمان، ولم تتعرض لهم بيرية عسكرية حمراء تدقق في حقهم في عبورها بهذه البساطة إلى عالم لا تنمو فيه أحلامهم على فوهات بنادق معدة للإطلاق، شيوخ وعجائز لم يذهبوا في حياتهم أبعد من قباب الأولياء، وعندما شاهدوا البحر لأول مرة خافوا وأصابهم ذعر مفاجئ، وتراجعوا للوراء وعجز المهرب أن يقنعهم بنقل أقدامهم من الشاطئ إلى حافة القارب، شيء مهول ومخيف هذا النهر الكبير الواسع المترامي الأطراف الذي لا حدود له والذي لا ترى العين ضفته الأخرى البعيدة..

- سيدي الغوث.. الغوث.. أنقذنا من البحر يا رب، هذا شيء ما رآه نوح قبلنا في طوفانه الكبير.

- هو جزء من المحيط الهندي الذي سيحملنا إلى (جزر الواق واق) الأسطورية البعيدة، التي لم يصلها حتى سندباد بنفسه.

- لا تخاف كل شيء سيكون على ما يرام..

القارب المتهالك... ألواح خشبية تفسخت وهي تشرب مع الأسماك ملح البحر، وحمولته أجساد أرهقها التجوال في تيه القارات، وهي تحمل أوزانها وأوزارها وتفتش لها عن أرض جديدة لم تطأها أقدامها من قبل هربًا من أرض ما أنفكت تبتلع أبناءها باستمرار..

- قال السمسار العربي: الأجرة ازدادت وعليكم أن تدفعوا لي الزياده الآن.. نحن لدينا التزامات كثيرة مع الحكومة.

هو يبتزنا لأنه ينظر إلى بضاعته كأي تاجر، نحن في النهاية رقم في محفظته وكلما امتلأت وانتفخت زاد نشاطه.. كان يحمل مسدسه لتهديد الجبناء الذين يخافون ركوب البحر عند جنح الظلام.. اركبوا مالكم ترتجفون ألم يجرب أجدادكم ركوب البحر من قبل ألستم أحفاد ابن زياد، بماذا يهذي هذا الشقيق العربي الذي أطلقنا عليه: ابن يعقوب وأخُ يوسف، من ابن زياد هذا وما علاقته بنا؟! ابن زياد لم يكن بحارًا كان واليًا لخليفة الشام على الكوفة وفيها لا يوجد بحر.. بل الفرات نهر تحرس شاطئيه أشجار نخيل.. وبين هذه الأشجار الكثيفة سطر أجدادنا الكوفيون ملاحم تاريخهم المثير للجدل حتى الآن، هذا الأخ الجاهل لا يعرف تاريخنا جيدًا لكنه يحب الدولارات التي نخبأها عنه، ومع ذلك فهو حقًا مهرب أمين لمهنته ويختلف عن الآخرين الذين غدروا بزبائنهم، فهو لو أراد بإشارة من إصبعه المطوق بخاتم ذهبي مزين بفص ثمين، يستطيع أن يقلب خططنا رأسًا على عقب ويحيل أحلامنا إلى كابوس وآمالنا هباء.. كان يقف

هناك كواجهة تؤشر للهروب، ينتصب عند الشاطئ بعيدًا عن سيارته المرسيدس السوداء تلفه عتمة الغروب وبقايا ضوء كاب محتضر لقوارب صيادين ترسل تمنياتها لنا برحلة قد لا نعود منها أبدًا لنفس الشاطئ الذي أبحرنا منه، وهي وباللحظ المجهول أمنيتنا، وأمنية المهرب أيضًا، هوت حقيبة أحدنا إلى قاع البحر وهو ينقل قدمه للقارب واختفت بسرعة كحصاة تتجه للقعر، ورغم أنني لم أر تعابير وجهه إلا أنها انعكست عليّ بالطريقة التي اعتدنا نحن أن نرى الأشياء المؤلمة من خلال شيء أشبه بالعدوى تنتقل بسرعة كما تنتقل الفيروسات والأمراض عند الآخرين، لا أشك أنه كان ينوي أن يرمي بنفسه وراءها.. يا إلهي نتوجع ونسكت ونموت من شدة القهر ولا نتفوه بكلمة واحدة يا لها من مهانة ندفع ثمنها ما نملك من مال وما تبقى لدينا من كرامة.

كنا بين المدن نقيس المسافات البعيدة بعدد نقاط السيطرة على الطرق وبالسهوب الغبراء المغطاة بالأشواك التي ترافقنا أنى توجهنا، فيصيبنا السأم والملل والإرهاق وتتصلب مفاصلنا لطول الجلوس، السماء والأرض تعودان بك إلى تاريخ تراكمت فيه أحزان عتقتها سنوات العمر حتى غطت أفق حياتنا بلونها الرمادي الكابي، أغنية نائحة نسمعها لأنفسنا كلما هجمت علينا هموم الحياة، السفر بعد كل ذلك حزمة من عقاب تسلطه علينا آلهة قساة تحترف تعذيب المسافرين، وعندما تلوح لنا قباب الأولياء نبكي بصمت وحرقة لأننا نخشى أن نموت في الغربة ولا نجد من يسلينا في عزلتنا ووحدتنا الأبدية، وأننا لا نستطيع أن نلوذ بها كحمائم تهرب

من قيظ الظهيرة فتلجأ للماء والطين كحمائم الجواهري، هل سنرى هذه القباب التي تؤنسنا في وحدتنا طافية فوق هذا اليم، لكي نستطيع أن نرتاح ونمسح رهق هذه الرحلة في أروقتها وصحونها ونتعلق في صناديق أضرحتها، نستنشق رائحة الزمن والألوف التي لمست أياديهم هذا المكان وذرفت عيونهم دموع الحرقة والندم وقلوبهم اللاهجة بالدعاء، للآمال يئسوا من تحقيقها فلجأوا متوسلين مستشفعين، ونقف على أبوابها العالية لحظة أن نهم بالدخول ونشعر برهبة كلما اقتربنا للداخل كما كان يجد أجدادنا الراحة بين أفيائها، ولسماع قَر حمائمها.

الماء والسماء المكفهرة بظلمة البحر ونحن زمرة أغبياء هاربين لا نملك حس الطائر الذكي وغريزته التي تقوده لمقصده النهائي، وليس عندنا جناحاه اللذان يحلق بهما ويرى من شاهق اليابسة التي تنتظره ليهبط عليها وينعم بالراحة، بحر وسماء وخليط من فسيفساء الوطن تجمعهم غريزة أنانية لخلاص فردي، هذا القارب الذي انغمس بماء البحر هو بيتنا الآن ووطننا الذي نحرص أن نحميه، إلى أن نصل حيث الأمان وبعدها إذ ما تناثرت الواحة الخشبية المهترئه وابتلعها البحر فلن نأسف عليه أبدًا، الغوث.. الغوث.. أنقذنا من الغرق يا رب.. ارحمنا يا رب واجعل البحر يحبنا، ألم تجعل النار باردة على خليلك إبراهيم.. اجعل سطحه لوحًا زجاجيًا من بلور سميك يطفو على الغمر لنسير فوقه مع أهلنا إلى الجانب الآخر، واجعل الأسماك تقفز منه مشوية وجاهزة للأكل، واستبدل ماءه الأجاج بماء فرات لذة للشاربين.. يا رب العالمين

نحن التجأنا إليك وهذا البحر بحرك ونحن عبيدك يا رءوفا بعباده المسلمين..ارحمنا.. ارحمنا يا رب..

توقف هدير المحرك بعد شخير متقطع وساد صمت قلق فوق رءوسنا كأننا ننظر إلى أحد منا في حالة احتضار.

- لا تدخل الله مع النقود.. الأجور ثابتة وكلما تأخرت يومًا زدتها عليك، وإذا ما يعجبك اذهب وابحث على واحد غيري.. هذا ما قاله ابن يعقوب لأحد أخوته في إحدى نوبات غطرسته الشديدة عندما توسل به أن يتساهل معه في الأجرة حينما كنا نسلمه النقود والجوازات.

وهذا هو الرجل نفسه الذي كان عصبيًا يساوم ويعارك، ولا يطيق كلمة من أحد، ولكنه هو نفسه الآن بعد أن صمت المحرك، يجلس واضعًا رأسه بين ركبتيه ينتحب خفية وينشج بين الحين والآخر، وعندما وضعت يدي على كتفه رفع رأسه ونظر إليّ متوسلاً قال مختنقًا بعبرات حاول أن يسيطر عليها:

- تركت عائلتي في (جزيرة لانبورغ)، فإذا مت هنا فماذا سيكون مصيرهم؟!

وكما أن الموت لم يحجم أن يبرز علانية كاشفًا عن وجهه في كثير من تفاصيل حياتنا اليومية، وكان من قبل يلبد مختبئًا في تلافيف اللاوعي، كان الرجل يريد أيضًا أن يدافع عن نفسه بشئ من الاستكانة والتبرير والقبول بتعذيب النفس والرضى والقناعة بأن ما نحصده ما هو إلا عقاب لما اقترفه أجدادنا في الماضي من جرائم ها نحن نسدد الآن ما

علينا من دينهم، هذه الفاتورة لا أحد يعلم كم يبلغ طولها ولكنها حتمًا أطول مما نتوقع.. نحن ندفع ثمن لعنة ودعاء ولي عظيم، فما عسانا أن نفعل غير أن نرضخ لهذا الواقع، وليس لنا جرأة تنفيذ أمر السماء الذي انصاع له أولئك الذين خدعهم السامري.. لا بأس إذن، إذا لم نجرؤ على قتل أنفسنا فليقتلنا الآخرون، ليقتلنا البحر.. البحر أرحم بنا فهو يميتنا ميتة رومانسية بدون رصاص ولا دماء نازفة وأطراف مبتورة وأشلاء ممزقة، يستلمنا بنعومته الطرية الباردة ويأخذنا بين ذراعيه الكبيرتين إلى صدرة الواسع، إلى أغواره العميقة إلى مملكة السلام الأبدي هناك حيث لا حروب ولا تهريب لا نقود نخاف عليها أو جوازات مزورة نخاف منها، هناك في مملكة الظلام الدائم، تنهشنا قروشه وتشبع وبعدها تتمنى لنا إقامة طيبة في أعماقه السحيقة المظلمة.

- يوجد معنا على القارب اثنان منا هما سبب هذه اللعنة التي حلت بنا، صاح أحدهم كالملدوغ.. وران صمت قصير وصاح مرة أخرى وران صمت آخر ولكنه في المرة الثانية اندفع كالمجنون:

- أنتما الاثنان يجب أن تغادرا القارب، أنتما كافران وسوف يغرق القارب بسببكما إذا بقيتما عليه..

قلت كأني أتلو شيئًا من كتاب مقدس عند الجميع:

- هكذا لن ينجو أحد منا.. وفي هذه المحنة لن ينحاز الله لفئة معينة منا، نحن جميعًا نبتهل الخلاص وكلمة الحب هي وحدها التي يسمعها الله..

كانت الأمواج تتراكض باتجاه القارب تكر على جانبه

المواجه للريح، وعندما ترتطم به ترتد بعيدًا، مخلفة هزات وهدهدات رفيقة ووشوشة تثير في النفس رغبة قوية بالاستسلام للنوم، وكان القبطان الأندونيسي الشاب يراقب ذلك وهو مشغول بسكينة لإعداد مجداف ولوح خشب وبعد الانتهاء من عمله قذفهما في الماء ولحق بهما فورًا، أمسك باللوح واستلقى عليه وأخذ يجدف مبتعدًا عن القارب، اعتقدنا أن هذا القرد تركنا لمصيرنا لينجو بجلده، ولكنه عاد بعد نصف يوم بقارب صيد مع مياه للشرب ووقود... وأصلحوا المحرك وتجمعنا حول قبطاننا نقبله ونشكره، ولكن فرحنا بعودة القبطان وإصلاح المحرك تبدد كرشة ماء باردة يرشها البحر بسرعة بين حين وآخر على وجوهنا الملتهبة تحت شمسه الاستوائية، تبدد الفرح لأن أخوينا الكافرين أصرّا على مغادرتنا إلى قارب الصيد الآخر وتمنيا لنا حظًا طيبًا وهما يودعانا عائدين للساحل..

النهر والمدينة

هادئًا يجري النهر، ومطمئنةً تنام المدينة، وفي إحدى الليالي كانت نائمة، تحلم على أنغام موسيقا منتصف الليل التي تجلب للنيام نومًا هانئًا وأحلامًا سعيدة، فإذا بموجة غافلت نهرها الوادع، واندفعت عنيفة نحو المدينة، وعند مفترق الطرق انشعبت شطرين اتجهت إحداهما نحو جانبها الغربي حيث الأحياء الراقية، والأخرى نحو الأحياء الفقيرة في الجانب الشرقي منها، وكانت كلتاهما في سباق مع الزمن، كان الحالمون في تلك الساعة في ذروة سعادتهم عندما داهمتهم هذه الموجه، الفقراء يحلمون بالأشياء التي لدى الأغنياء أو بأشياء أقل منها، الأشياء التي لا تطالها أيديهم، وهم في أحلامهم يرسمون صورة جميلة لعالم جديد، ليس صعب المنال ولكنه لا يتحقق الآن وربما يتحقق في المستقبل، بينما الأغنياء كانوا يحلمون بالأشياء التي ليست موجودة عندهم بأشياء لم يقتنوها بعد أو يروها من قبل، أشياء تملأ أحلامهم بالبهجة والسعادة، أشياء من نسج خيالهم ومن مبتكرات عقول مبدعين من مدينتهم ولكنها لم تر النور بعد، طالما تحدثوا عنها في مناسبات كثيرة، أحلام تجعل حياتهم نزهة رائعة في جزر أسطورية، بعضهم كان يحلم بالسفر بين الكواكب أو يلعب الغولف في ساحات

خضراء على سطح القمر، لا حدود لتلك الأحلام طالما كانت الموسيقا التي تعزف كل ليلة من ميدان المدينة، تنساب ناعمة موحية ساحرة تأسر القلوب، ولها كل هذا التأثير المدهش الطاغي عليهم، وهي فوق ذلك مأثرة وإرث يفخر بها أهلها الذين نصبوا تمثالاً لمؤلف هذه السمفونية الرائعة في أهم ميادينها الكبيرة في مركز المدينة. ولكن الموجة شوشت هذه الليلة عليهم متعة الحالمين وتداخلت أحلامهم مع بعضها وانقلبت إلى كوابيس.. كانت الموجة تجرف في طريقها كل شيء حتى أفرغت المدينة تقريبًا من كل محتوياتها، ولكنها لم تمس الناس في بيوتهم بأي أذى حتى أنها كانت تداعب الأطفال في أسرتهم وتلعب مع القطط والكلاب، ولكنها كانت شرسة مع المراكز التسويقية والمحلات التجارية الكبرى والشركات الكبيرة، ومرت على المؤسسات الحكومية دون أن تحدث أضرارًا كبيرة ولكنها نظفت شوارع الأحياء الفقيرة من أكداس النفايات.

في إحدى الشقق المطلة على الميدان، كان مفكر المدينة المعتكف في صومعته العليا، في إحدى العمارات العالية غارقًا في أفكاره، يحاول أن يكتشف شيئًا ما ينافس به موسيقار المدينة، شيئًا ما يجعلهم يكفون عن أحلامهم السخيفة هذه أو يحلموا بأشياء معقولة وواقعية يشترك فيها الجميع وتكون في متناولهم، كان يعصر فكره ويكبح نوبات السعال التي تداهمه في الليل، ولكنه يفشل وينخرط في نوبة سعال شديدة توقظ زوجته التي تململت قليلاً ثم عادت للنوم. أعياه التعب فأخذ يستل أوراق الكتاب الذي

بيده ويقطعها في حالة غضب هستيرية، ثم يرميها فوق رأسه فتنزل كسرب عصافير فوق حقل محصود، نظر من نافذته المطلة على الميدان إلى تمثال الموسيقار الذي كانت تغمره الأضواء ويتباهى بآلته الموسيقية التي يحتضنها بيديه.

كانت الأشياء التي جرفتها الموجة تتكدس كجبل في ميدان المدينة وحوله وفي الشوارع المؤدية إليه.

وعند انبلاج أولى خيوط ضياء الصباح كانت الموجة تنحسر وتعود مرة أخرى إلى النهر الذي اندفعت منه، وكانت الموسيقا قد تسارعت وتيرتها وارتفعت نبرتها حتى تحولت مع طلوع الشمس إلى أصوات أشبه بقرع الطبول وفرقعة الصنوج، كأنها نواقيس تدق بقوة أو أجراس لآلاف من الساعات المنبهة تنطلق مرة واحدة وفي وقت واحد. نظر المفكر مرة أخرى إلى التمثال فرأى شيئًا معلقًا على يده يتدلى منها أشبه بحمالة صدر قبتيها إلى الأعلى وطرفيها إلى الأسفل، حاول أن يميز اللون لكن ضوء الشمس أعشى بصره، ضحك مع نوبة سعال حادة أوقعته من سريره على الأرض فمات. إما سكان المدينة فقد تجمعوا حول الكدس الكبير وأشعلوا فيه النار وأخذوا يرقصون حوله... في الوقت نفسه كان النهر يعتذر للمدينة:

- سيدتي تقبلي اعتذاري وأسفي الشديد لما حدث البارحة.

- قبلت اعتذارك ولكنني أريد اعتذارًا من الموجة نفسها فهي وحدها التي سببت كل هذا الخراب.

الموجة تخاطب النهر:

- سيدي إنها تستحق ما حدث...

- إذا لم تعتذري للمدينة سأمنعك من اللقاء بالبحر وسأحبسك في قاعي إلى الأبد...

المدينة تخاطب النهر:

- لا بأس يا سيدي، لا داعي للاعتذار، ما حدث كان درسًا مفيدًا لي..

- درسًا مفيدًا، كيف!

- علمتني الموجة بحركتها الموجية واقعية التلازم بين القمة والقعر وتبادل موقعيهما باستمرار..

- حقًا!

- نعم هذه حقيقة لم أكن أدركها من قبل..

التمثال يخاطب أهل المدينة على لسان الموسيقار:

- لم أكن أتوقع أن خللاً كهذا سيفسد كل شيء، ما كان بمقدور الموجة أن تسبب هذا الخراب دون أن تعطل نظام التوقيت الذاتي الذي اعتمدناه سنوات طويلة، التوقيت الدقيق للفترات النغمية التوافقية للسمفونية على التوالي: فترة منتصف الليل وما بعده، وفترة الصباح حتى لحظة الاستيقاظ من النوم، كل شيء مبرمج بدقة متناهية ولا مجال للخطأ فيه، وعليه فأنا أتحمل المسئولية لهذه الفوضى التي حدثت.

- وإذن سوف نزيل تمثالك من الميدان الكبير ونحتفظ به في المتحف، وننصب محله تمثال مفكر المدينة لأنه مات من أجلنا... لم يقل التمثال شيئًا بعد ذلك..

واستمر النهر يجري هادئًا وهو في طريقه للبحر الذي ينتظره بلهفة، مارًا تارة بمدينة تنام قريرة العين على ذراعه الأيسر، وأخرى على ذراعه الأيمن، أو قاطعًا صحراء مقفرة أو سهولاً مجدبة، حتى أجهده التعب من الجريان في هذه البقاع الموحشة وصار يتشوق للقاء البحر...

obeikandl.com

وجوه على جدران الذاكرة(*)

إذا كان العقم خالصًا نتج عنه قتل المحاولة مع سبق الإصرار، ولكن ماذا ينتج عن الفشل الملتصق برحم التجربة؟ الجواب نسبيًا هو: إجهاض الجنين، هذه هي المعادلة السفسطائية الأولى..

القناعة الانهزامية هي الفشل بعينه، لكن مذاقها مقبول، وكأسها مخدرة تشربها راضيًا فتكف عن المحاولة، وتشعر بعدم الاكتراث، وتفقد سحر الإثارة فلا تتكهرب خلايا ذهنك ولا تتوقد ولا تضيء بالأفكار، عندئذ تستريح أو تمت منتحرًا، سيان عندك ذلك.. وهذه هي المعادلة السفسطائية الثانية..

وعلى هاتين المعادلتين اعترض سقراط.

أنا لم أتوقف عن المحاولة رغم عدم جدواها، كنت أجمع خرزات ملونة لأختي التي ماتت صغيرة، أضعها في كيس وأخفيها عن الأنظار وأنتظر اللحظة التي تأتي يومًا لتأخذها مني، حتى صرفني عنها شيء آخر أنا جاد في البحث عنه..

أبحث في الوجوه عن وجه أقرأ فيه الصدق وبراءة الطفولة، هذه المرة كنت أكثر تصميمًا وعنادًا وجنونًا،

(*) نشرت بمجلة البيان الصادرة عن رابطة الأدباء في الكويت العدد ٢٦٢ / يناير ١٩٨٨.

بصبر الحياة تسلحت وتهت في وهادها وكثبانها حتى هداني الله لمدينة صحراوية، لها أبواب عديدة، احترت أي باب أدخله ولما دخلت باب العجائب: دهشت لمظاهر البذخ الأسطوري فقد وجدت أهلها في احتفالاتهم يمرحون، يرتقي أحدهم دكة عالية كخشبة المسرح ثم يقدم نفسه للناس خطيبًا:

- أنا وجه متقن التمويه أبدعتني يد ماهرة، فن ولا كل الفنون، المواد المستعملة بسيطة ومتوفرة محليًا: قليل من شمع العسل ومساحيق وأصباغ وشيء من الصمغ العربي، الفن والمهارة قبل كل شيء، وأستطيع أن أعلن لكم بفخر أنا إنتاج محلي مائة بالمائة، ومعي تستطيعون تحقيق طموحاتكم المستقبلية لأني أمنحكم السعادة الكاملة..

انفجر تصفيق متشنج، ثم اعتلى الدكة وجه آخر، ومع أنه كان أكثر تمويهًا من الأول لكنه ظل وجهًا نصفيًا بشعًا ممسوحًا من جانب وناتئًا من الجانب الآخر، وأعلن عن نفسه قائلاً:

- أنا الرجل المناسب لكل المناسبات..

قوطع خطابه بعاصفة من الصراخ والصفير، وبرز وجه آخر حليق ناعم كجلد الأفعى، وقف صامتًا برهة لا يدري ما يقول كأنه نسي ما يريد قوله، ولما وجد الجمهور يوشك أن ينفجر جمع شتات فكره وشرع يتكلم:

- أتدرون بماذا أغسل وجهي صباحًا؟

انفجرت تعليقات لاذعة طمست صوته فولى هاربًا مدحورًا، وبرز وجه آخر واختفى، وبعدها تتابعت الوجوه

تعتلي المنصة حتى أصابني دوار شديد ووجدت نفسي في قلب دوامة عاتية تلفني لفًا ثم قذفتني خارج أسوار المدينة.

ولكنني واصلت البحث عن وجه حقيقي، فأنا كلما تطلعت لوجه أبي من زجاج الصورة التي غشّاها غبار خفيف ناعم، يسيطر عليَّ إحساس غامض لا أعرف كنهه.. ربما تلك الابتسامة الغريبة الغامضة التي أحار في استجلاء سرها، أهي ابتسامة السعادة والرضا أم السخرية والمرارة، وأحيانًا تلتقي نظراتنا فجأة فيشع من عينيه بريق غريب، عندئذ تعتريني رجفة تجتاح جسدي كله فأنسحب على أثرها مذعورًا، لكنني لا أكف عن المحاولة ولا يهمني ما يقوله البعض بأن النظر إلى صورة الميت تعني الرغبة في اللحاق به، لم أصدق ولم أسأل أحدًا عن ذلك، أنا أعرفه رغم أنني لم أره، حيث كنت صغيرًا عندما مات.

في آخر النهار ارتدت مقهى قريب كانت وجوه روّاده مألوفة، فهي إما وجوه مسحوقة لكثرة ما وطأتها أقدام العابرين، فصارت تربًا مستباحًا أو هي وجوه وقحة صفيقة تومئ بالمكر، كنت أستجدي رؤية وجه جديد لعابر سبيل.

أبحث بين الطيور الغريبة عن طائر مسافر يحمل تحت جناحيه أسرارًا ومفاجآت كثيرة، وعندما أشعر بالسأم أغادر المقهى، وفي إحدى الأمسيات كانت الوجوه المألوفة تنجذب بقوة لشاشة التلفاز بانبهار غبي، وهي مشدودة لكتل ضخمة من لحم متورم يبطش بعضه ببعض، والوجوه المألوفة منفعلة تجتر في دواخلها الخاوية فحولة مخصية وقوة ضائعة، الوجوه تطفو على نافورات رمادية من الدخان، في تلك

اللحظات التي ارتفع فيها الهياج لذروته وقذفت الأفواه النتنة عفونتها المزمنة، سقطت نظراتي التائهة عليه لمحت جانبًا من وجهه انعكس عليه ضوء مترجرج من شاشة التلفاز، الجانب الآخر ظل غارقًا في غمامة الدخان، كان يجلس هادئًا مطمئنًا رغم ضجيج المقهى الذي يصم الآذان يرتشف قهوته رشفات صغيرة.

في اليوم التالي تمنيت رؤيته مرة أخرى، لا أدري لماذا! ربما هو إغراء الاكتشاف، وبلهفة أسرعت إلى المقهى فوجدته جالسًا في نفس ركنه وقد اختفى فنجان القهوة في كفه الكبيرة، كدت أتراجع عندما وضعت قدمي داخل المقهى لأن نظراتنا التقت فجأة، اجتزت الباب وصرت قبالته مباشرةً، وجدت نفسي أتقدم إليه وأحييه، رد تحيتي بنبرة تفيض بالود، فتشجعت وجلست بجانبه، فكرر ترحيبه بي، جلست لحظات ألوذ بالصمت لا أدري ماذا أقول، كنت أبحث عن كلمة أبدأ فيها حديثي معه، لكنه كفاني صعوبة الموقف الذي أوقعت نفسي فيه، سألني دون تكلف ماذا أحب أن أشرب؟ أجبت مرتبكًا: عفوًا سيدي أنت ضيفي الآن.. فرد مبتسمًا وبأدب جم: نحن في مقهى ولا داعي للضيافة هنا.. قلت وقد ركبني خجل شديد: لا يا سيدي قصدت أنك جديد على هذه المقهى.. فقاطعني مبتسمًا: وما الفرق سأصبح زبونًا دائمًا فانتهزت الفرصة السانحة وقلت بروح مرحة: إذن سنصبح أصدقاء. نظر إليّ برهة وكأنه قرأ أفكاري وقال: ولم لا.. سنكون أصدقاء.

ثم تجاذبنا أطراف الحديث حتى انتصف الليل، فافترقنا وتواعدنا على اللقاء غدًا.

وفي تلك الليلة وقفت طويلاً أمام صورة أبي وقد أدهشني ما بينهما من شبه واضح، قلت في نفسي ربما أنا واهم، وقد يكون ذلك من تأثير الرجل الغريب، ثم جمعتنا المقهى في أمسية كان مطرها ينهمر كثيفًا، كنا نتبادل بضع كلمات وأعيننا معلقة بتلك السلسلة المائية المتصلة بين السماء والأرض التي ترشق الأرض الصلبة بقوة أمام أعيننا.. في تلك اللحظة وهو مستغرق بمشاهدة المطر سألته:

ما رأيك يا صديقي بالحديث عن الوجوه؟ التفت إليّ مستغربًا وقال:

- أي وجوه تقصد..؟ أجبته بنبرة واثقة.

- وجوه الناس طبعًا.. قال وما زالت الدهشة تأسره:

- وما شأننا بوجوههم! قلت معترضًا:

- كيف.. أنا مهووس بها.. انتظرت لحظة ولما وجدته صامتًا قلت:

- يهمني من أمرها كيف تراها أنت.. ولكي أخرجه من صمته أضفت: خذ مثلاً: الأطفال ماذا ترى في وجوههم؟

قال وكأنني أيقظت فيه عاطفة نائمة وشرع يتكلم كأنه يخاطب شخصًا آخر ناظرًا لنقطة غير مرئية عبر ضباب الواجهة الزجاجية للمقهى محلقًا في حلمه البعيد:

- أرى فيها الدفء والطهر والقداسة، أراها مثل أرغفة خبز خرجت لتوها من التنور ناضجة بحرارته فواحة بالشوق لسنابل الحقل، قلت مأخوذًا بسحر كلامه: أكمل.. أكمل أنت شاعر حقًا يا سيدي.. استمر قائلاً.. وإنها موضع السجود في صلاتي.. استوضحته سائلاً:

- وهل كل وجوههم كذلك؟ أجاب مشددًا على كلماته:

- كلها دون استثناء..

- ووجوه الرجال والنساء؟ سألته منتهزًا الفرصة، قال:

- لست واثقًا.. أقصد لا أستطيع الحكم على وجوه الكبار.. قلت:

- هل تقصد أنها فقدت شفافيتها؟

- نعم قد ينطبق ذلك على بعضهم.. إذ حتى المرايا الصقيلة تدركها العتمة بمرور الزمن فتفقد ألقها وصفائها..

وفي إحدى صباحات المدينة كانت الشمس تجفف شوارعها الموحلة، رأيت واحدًا من ذوي الوجوه النصفية أقبل نحوي وأراني صورة كانت لصديقي ثم سألني عن صاحبها.. قلت له:

- ربما رأيته من قبل ولكن لا أدري متى وأين؟ أغضبه جوابي.

فأردفت سائلاً: ولكن قل لي ماذا تريد منه؟

صرخ في وجهي:

- ليس هذا شأنك.. عندئذ أيقنت أنه يريد به شرًا، فأخرجت صورة والدي وقدمتها له

قلت: أهذا هو الرجل الذي تبحث عنه؟

رد مزمجرًا: هو بعينه، دلني عليه أين هو؟

قلت له: مهلاً. أنت واهم فهذا الرجل الذي تبحث عنه هو والدي..

أمسك بي من تلابيبي والغضب يأكله..

- أين هو؟

- مات.. مات منذ زمن بعيد..

- لا تحاول خداعي وإلا ستنال أنت العقاب أيضًا..

أجبته ببرود:

- ولكن هذه هي الحقيقة وإن لم تصدقني اسأل الناس فهم يعرفون ذلك.

تراجع عني ثم رأيته يختفي في الزحام جارًا أذيال الهزيمة.. وفي أمسية ذلك اليوم كنت أشد لهفةً وقلقًا لرؤية صديقي وحينما دخلت المقهى وجدت مكانه خاليًا، وانتظرته أمسيات أخر كثيرة ولكنه لم يأتي أبدًا.

obeikandl.com

الفهرس

- وتر في دائرة الليل ٧
- الحوذي العجوز..... ١٧
- مويرد..... ٢٦
- أرشيف مدينة تحتضر..... ٣٢
- عن القاف والهاء ٤٠
- عشرة نجوم بلون الدخان ٥٠
- قبيل الفجر ٥٧
- التمثال..... ٦٦
- الانكسار ٧٥
- في تيه البحار..... ٨٤
- النهر والمدينة..... ٩٧
- وجوه على جدران الذاكرة ١٠٢

obeikandl.com

من قائمة الإصدارات "رواية – قصة"

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
وراء السراب قليلا	إبراهيم درغوثى
حيطان الريح	إبراهيم الناصر الحميدان
حمدان طليقًا	أحمد عمر شاهين
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ
سريب	أحمد الفيتورى
وقائع غرق السفينة	إدريس على
طريق النسر	إدوار الخراط
صخور السماء	إدوار الخراط
صيد الحضرمية	أمير تاج السر
همس القوارير	تركية عبد الحفيظ
مطرية الغروب	جمال الغيطانى
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوى
رفيف التراتيب	خالد الأنشاصى
كيد النسا	خيرى عبد الجواد
حب خلف المشربية	د. رشا سمير
حالات الروح	زكريا عبد الغنى
أوزار	سليمان زيدان
عندما تموت الملائكة	صابرين الصباغ
الطماشة	عباس منصور
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
مرسى ديله	عبد الفتاح البشتى
حكايا أنثوية	عبد الفتاح صبرى
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسوانى
سراديب	عفاف السيد
إينارو	د. على فهمى خشيم
ولا يزال المعطف معلقًا	علي مصطفى المصراتي

obeikandl.com

جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جداً)	د. فاروق أوهان
تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلى
الحمامة البرية	فؤاد فنديل
فنار الأخوين	فوزية مهران
النعاس يغشى المدينة	فيصل سليم التلاوى
أعباء	كريم شعلان
الفتيت المبعثر	محسن الرملى
المدامسة	محمد الأصفر
مد الموج	محمد جبريل
العابدة	محمد جراح
هالة النور	محمد العشرى
رماد مشتعل	سيف المرى
حريم .. (أعزكم الله)	محمد الغربى عمران
الخروج إلى النبع	محمد قطب
الحياة مفرد مؤنث	محمود قاسم
شمس الملوك	مريم الخولى
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
وبر الأحصنة	نجوى بن شتوان
شموع تحترق	نفيسة الشرقاوى
المشى إلى مدار المطر	نمير بن سالم آل سعيد
تحت المجهر(رواية من الخيال العلمى)	نهاد شريف
قمر أخضر	نهلة السوسو
الولايا و....	هناء زكى
أنت وحدك السماء	هيام عبد الهادى
شبيه الخنزير	وارد بدر السالم
امرأة بين الرجال	وفية خيري

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدار لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

للتواصل مع المؤلف على البريد الالكتروني:

E.mail: salehalbayati@hotmail.com

obeikandl.com